أكاذيب صغيرة

أكاذيب صغيرة

رواية

مصطفى بيومي

طبعة ٢٠٢٠م

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لشركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر
وعلامتها التجارية (شخابيط)

24شارع غزة _ المهندسين _ الجيزة
تليفون : 01145004994 2+ _ 0233031633 2+
info@sha5abet.com
إن شركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر ، وعلامتها التجارية (شخابيط) غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
الغلاف : أحمد شاكر
اخراج فنى : عمرو محمد
المدير العام : د.سامح شاكر
رقم الايداع: ٢٠١٩/٢٣٨١٩
I.S.B.N.978-977-6760-85-1

أكاذيب صغيرة

رواية

مصطفى بيومي

اسمعني كويس يا سي مختار واوعى تقاطعني.. أنا خلقي ضيق.. اللي دلني عليك قال إنك بتكتب كويس وشاطر في صنعتك.. وقال كمان إنك قليل البخت والفلوس.. انت داخل ع الستين وماحدش يعرفك.. أنا بعد كام شهر ها أكمل خمسة وستين سنة.. بس دا بيني وبينك طبعًا.. مش كل اللي تسمعه تكتبه..

أنا من مواليد أول يناير سنة اتنين وخسمين.. اشتغلت في كار الفن أكتر من أربعين سنة.. ابتديت رقاصة مجاميع في السيما وآديني بقيت زي ما أنت شايف.. كنت رقاصة على باب الله.. ودلوقتي أشهر وأغنى رقاصة.. بطلت من ييجي عشر سنين صحيح.. لكن اسمي زي الطبل.. على فكرة أنا عندي ملايين.. واتجوزت تلاتاشر راجل.. رسمي وعرفي.. غير اللي عرفتهم ومشيت معاهم من غير جواز.. الله غفور رحيم يا أستاذ..

تصدق بالله.. قول لا إله إلا الله.. من قيمة كام وتلاتين سنة كده.. لما كنت في عز عزي.. شيخ من بتوع الخليج كان هايموت عليا.. ضربنا ورقة عرفي.. عشان الحرام والحلال وكده.. تعرف خدت منه كام في السنة بتاع الجواز؟.. شوف اللي إنت كسبته في عمرك واضرب الرقم في ميتين ولا تلتمية..

آخر جوازة كانت من أربع سنين.. أيام الهوجة بتاعة يناير.. سبحان الله.. شاب ما كملش خمسة وعشرين سنة دخل دماغي.. اتجوزته أسبوعين عرفي.. بس أنا اللي دفعت.. الأيام دول.. أنا خلاص تبت وحجيت ونفسي أريح ضميري..

واحد معرفة ابن حلال شار عليا إني أكتب مذكراتي.. وحلف إنها هاتكسر الدنيا.. بس أنا ماليش تقل على الكتابة.. اوعى تفتكرني جاهلة.. فشر..

أنا واخدة دبلوم تجارة سنة سبعين.. وأبويا كان موظف في وزارة الصحة.. أخويا الوحيد مات في حرب تلاتة وسبعين.. أمي ماتت بحسرتها بعديه بأسبوع.. وأبويا اتشل ومات قبل السنوية.. يعني تقدر تقول أنا أخت البطل.. أيامها كنت رقاصة على سن ورمح في شارع الهرم.. بس يعني مش مشهورة لسه.. أبويا الله يرحمه كان عارف وراضي ومبسوط..

نسيت أقولك إنه كان بتاع كوباية.. أمي ما كانتش تعرف.. كانت فاكرة إني سبت شغل الحكومة وماسكة حسابات مستشفى عشان المرتب أكبر.. الله يرحمها كانت طيبة قوي وعبيطة.. شوف يا سيدي.. الكلام كده هايتبعتر.. عايزاك ترتبلي مخي.. تسألني وأنا أجاوب.. من يوم ما اتولدت لغاية النهارده.. أبويا وأمي وأخويا أنور والجيران.. الرقص والجواز والحبيبة اللي ماتوا في دباديبي.. اللي دلني عليك قال إنك شاطر في الشغلانة دي.. وقال كمان إنك غلبان.. بس أنا مش ها آكل عرقك.. أنا مش عايزة فلوس من الكتاب ولا شهرة.. عايزة أريح ضميري..

انت فاكر الفيلم اللي اسمه أيوب؟.. الراجل المليونير اللي اتشل بعيد عنك.. وصاحبه شار عليه يكتب ويتفش؟.. أهو أنا بقى زي الله يرحمه عمر الشريف.. بس ظروفي أحسن منه شوية.. ما عنديش عيال يقرفوني ويقولولي عيب يا

ماما.. هاتفضحينا.. سمعتنا وكلام الناس.. كمان البلد اليومين دول فيها حرية.. ومين عارف؟.. يمكن نعمل الكتاب مسلسل ولا فيلم..

الحكاية دي تاخد منك وقت قد ايه يا سي مختار؟.. خد راحتك.. شهرين تلاتة.. ايه رأيك؟.. ها أديك مبلغ عمرك ما حلمت بيه.. تلاتين ألف يا سيدي.. ايه رأيك؟.. ولو الشغل عجبني وعمر في مخي ليك الحلاوة..

أووه.. ما قلت بلاش تقاطعني.. أنا خلقي ضيق.. ها أراضيك.. وأبسطك.. غيب يومين تلاتة كده وتعالى.. قولي ها تكتب ازاي.. وها نقعد كام قعدة.. آدي ألف جنيه عربون.. اشتريلك قميص وبنطلون حلوين.. وبلاش السجاير المصري دي.. اشرب مستورد عشان صحتك..

النهاردة ايه في أيام ربنا؟.. الخميس.. مستنياك يوم الحد بالليل.. تعالى من غير عشا.. هاتتعشى معايا ونشرب كاسين.. هايبقى عيش وملح ومزة.. إنت بتبص لي كده ليه؟.. الدهن في العتاقي يا سي مختار.. أنا داخلة صحيح ع الخمسة وستين.. لكن خبرة وأعجبك قوي.. مين عارف؟.. يمكن يكون ليك نصيب وتدوق.. شكلك كده محروم وهفتان.. ألا صحيح.. إنت مش متجوز ليه؟.. ايه نظامك مع النسوان؟.. مستنياك يوم الحد يا نور عيني.. اتكل بقى..

مقدمة

في اللقاء الأول مع الفنانة القديرة المحترمة ليلى رمزي، كنت على موعد مع رمز مصري جميل جليل، أضاف الكثير الذي لا يُعد ولا يحصى إلى تاريخ الفن، تمثيلاً راقيًا ورقصًا تعبيريًا وغناء استعراضيًا، ما يجعل منها جملة فنانات، أو كأنها المؤسسة الشاملة الشامخة التي تمشي على قدمين.

بعد دقائق قليلة من بداية الحديث معها، تخلصت من مشاعر الغربة والهيبة، وغمرتني نشوة التشبع بأفكارها المضيئة ورؤاها العميقة. آثرت أن تبتعد عن الساحة منذ سنوات، وهي في ذروة التوهج والتألق والقدرة على العطاء، ذلك أن المناخ المضطرب لم يعد يروقها. كان الغالب على تفكيرها أن تتفرغ للتمثيل بعد اعتزال الرقص، لكنها لم تجد الكاتب الموهوب الذي يقدم نصًا قادرًا على التعبير عن الواقع بتفاعلاته المعقدة، ولم تصادف فيما يُعرض عليها ما يتناسب مع إمكاناتها وتاريخها.

في طليعة كتيبة الفنانين المثقفين المسلحين بالوعي، تقف ليلى رمزي، فهي خريجة قسم التاريخ بكلية الآداب، وتتقن اللغتين الإنجليزية والفرنسية إتقانها للعربية. عندما أُتيحت لي فرصة زيارة بيتها، الذي يعبر عن ذوق رفيع نادر المثال، فوجئت بمكتبة دسمة يعز وجودها عند عتاة المثقفين.

القديرة ليلى، تتابع الأحداث والقضايا السياسية، المحلية والإقليمية والعالمية، كأنها خبيرة متخصصة، ومن يستمع إلى ما تقدمه من تحليلات عميقة للحياة المصرية، يجزم بأنها من أفذاذ علماء الاجتماع أصحاب الفكر التقدمي المستنير، أما عن درايتها بالفن المصري وتاريخه، وتوقعاتها بشأن آفاقه ومستقبله، فتقدم دروسًا قيمة ينبغي الإصغاء إليها واستيعابها.

قد لا يعرف الكثيرون أن المرحوم الدكتور رمزي حشمت، والد السيدة ليلى، كان وكيلاً لوزارة الصحة في منتصف الستينيات من القرن العشرين، أما والدتها السيدة نازلي هانم البارودي، فإنها صاحبة دور رائد في العمل الاجتماعي، ويُذكر لها بالخير والعرفان تأسيس عدد غير قليل من الجمعيات الخيرية.

وأنا أحاورها، لم أستطع أن أخفي إعجابي بما تملكه من معلومات وأسرار، وما تحفل به حياتها الثرية من محطات جديرة بالاهتمام. عندئذ، عرضت عليها أن تكتب مذكراتها لتفيد الثقافة المصرية بزاد جديد محترم.. لكنها اعتذرت بلا تردد لضيق الوقت من ناحية ولرغبتها الصادقة في التفرغ للعبادة وخدمة المجتمع من ناحية أخرى. عندما أبديت أسفي لاعتذارها، قالت لي بإنجليزيتها الراقية التي تسعفها في بعض المواقف أكثر من العربية:

- هل تمنحني وقتك يا أستاذ مختار وتكون عونًا لي في الكتابة التي لا يتسع لها وقتي؟.

وجدتُ في عرضها شرفًا عظيمًا، وبادرتُ بالإعلان عن امتناني لثقتها التي أعتز بها وأفخر. هكذا، اتفقنا على عشر جلسات، بمعدل لقاء لمدة ساعتين كل أسبوع، أسأل فيها وأستمع، وعبر هذه الحوارات التي لم تبخل فيها بشيء، مسلحة بالصدق والصراحة والشجاعة، تتشكل فصول المذكرات التي أقدم لها. لا فضل لي إلا الصياغة الأمينة، التي أرجو أن تكون دقيقة في التعبير عن رؤاها.

المأمول ألا أكون قد أطلت، وأظن أن الأوان قد آن ليبدأ القارئ الكريم رحلته مع مسيرة حياة الفنانة الرائدة، التي اعتزلت في ذروة النجاح والنضج، لكن بصمتها الفنية تبقى خالدة لا تزول.

ايه الجمال ده يا عم مختار؟.. عظمة على عظمة.. إيدك تتلف في حرير.. إنت طلعت كاتب كبير بجد.. اعذرني.. أصلي ماليش تقل ع القراية.. أنا عايزة كده على طول.. بس والنبي بلاش تزودها قوي.. وكيل وزارة الصحة مرة وحدة؟.. أبويا الله يرحمه ما كانش يعرف يقابل مدير الإدارة بتاعته إلا كل شهرين تلاتة.. صحيح الكلام ده فات عليه خمسين ستين سنة.. وما حدش فاكر حاجة.. لكن ولاد الحرام ماليين الدنيا..

ما علينا.. حلوة قوي حكاية العشر جلسات دول.. ماشي يا سيدي.. ساعتين كل أسبوع مش كتير.. هو أنا يعني ورايا ايه؟.. ها أحكيلك كل حاجة بصراحة.. وسجل إنت وفرغ براحتك.. الصراحة راحة طبعًا.. ومش ها أخبي عليك حاجة.. لكن كلك نظر ومفهومية.. أنا دوري أعيشك في الجو تمام.. وإنت بقى عليك تختار.. أمال اسمك مختار ازاي؟.. حلوة القفشة دي؟.. المهم.. ما علينا.. احنا اتعشينا مع بعض.. وبقى عيش وملح وويسكي.. ربنا ع اللي يخون ويغدر يا سي مختار.. اشرب يا راجل كاس تاني خلي الكلام يحلو.. فك كده وبلاش كسوف.. عينك ها تخرق صدري.. مش كده.. انت عمرك ما شفت نسوان؟..

ألا صحيح يا أستاذ انت ما اتجوزتش ليه؟.. أحسن برضه.. العزوبية حلوة وقلة مسئولية.. أهم حاجة في الدنيا راحة البال.. شوف أنا أتجوزت قد ايه.. عمري ما فكرت أجيب عيال.. الأول كنت خايفة على جسمي وشغلي.. وبعدين الحكاية بقت عادة.. تصدق بالله؟.. قول لا إله إلا الله.. أنا مقطوعة

من شجرة.. لا أخ ولا أخت.. ولا عم ولا خال.. ولا حتى قرايب من بعيد.. الفيلا الواسعة دي عايشة فيها لوحدي.. والملايين اللي عندي مالهاش وريث.. دايمًا أقول لنفسي.. ارمي ورا ضهرك يا بت يا ليلى.. أحسن حاجة الواحد يعيش يوم بيوم.. لما أموت يحلها ربنا.. أنا عارفة ربنا كويس قوي.. عمري ما آذيت حد.. ياما كان فيه ناس بيشتموني ويقولوا كلام كبير مجعلص عن الفساد وأفلام المقاولات.. واسمه ايه ده.. الخلاعة والابتذال.. ناس عبط وهبل.. أنا فرفشت الشعب وبسطته.. الناس عايشة في غلب أزلي ونكد.. يعني حرام لما ييجوا آخر الليل يشوفوا جسم حلو ملعلط وكام بوسة وحضن في الأفلام؟.. قصة ايه وهباب ايه؟.. أهي شوية مناظر وخلاص.. يختموا يوم التعب بالفرجة على بدلة رقص عريانة ويحلموا إنهم زي المحروس شهريار وحريمه.. الجعان يحلم بسوق العيش يا سي مختار..

وآدي الزمن جري وبقيت ست عجوزة.. مش عجوزة قوي.. لكن عجوزة.. أروح فين جنب البنات الصغيرين. الوظاويظ.. مزز صحيح.. يعني الواحدة هاتاخد زمنها وزمن غيرها؟..

المهم يا سيدي.. أنا مبسوطة منك قوي.. بتكتب حلو.. يا ريتني عرفتك لما كنت بأعمل أفلام.. كنت خليتك كتبتلي كام فيلم.. تتعوض.. مين عارف؟.. يمكن نعمل المذكرات دي فيلم.. أشوف بنت غلبانة تعمل دوري وأنا صغيرة.. وأكمل أنا.. فيلم زي بتوع المهرجانات والجوايز كده.. صلي ع النبي.. النهارده ايه في أيام ربنا؟.. الحد.. تمام.. نخلي قعدتنا كل يوم تلات.. تجيني

الساعة تسعة ولا عشرة بالليل.. نتعشى ونشرب كاسين ونحكي مع بعض شويتين.. التلات اللي بعده أبص ع اللي كتبته ونكمل حكايات.. بصراحة انت دخلت دماغي قوي.. احنا كنا متفقين على كام مصنعية؟.. تلاتين ألف.. لا.. شوية.. نخليهم خمسين.. الألف اللي وصلتك مش محسوبة.. وآدي يا سيدي خمسة من المبلغ الجديد.. عايزاك تروق وتفكر في أول جلسة.. يا راجل خف عينك شوية.. أمال لو شفتني من عشرين تلاتين سنة كنت عملت ايه؟.. اشرب كمان كاس وبعدين استأذن.. أشوفك بعد بكره على خير.. طريقك أخضر يا نور عيني..

أنا اسمي ليلى.. أبويا كان مجنون بليلى مراد وسماني على اسمها.. لغاية آخر يوم في عمره كان بيموت فيها.. حتى لما أخويا مات في الحرب.. وأمي حصلته بعد أسبوع.. كان يسمعها ويعيط.. يقول إن صوتها جاي من السما وبيدخل القلب دوغري..

المهم يا سيدي.. أبويا اسمه مش رمزي.. اسمه عبدالصبور شحاته.. لما بدأت أشتغل كومبارس وأرقص كان اسمي ليلى.. ولما انتشرت وأدواري كترت وكبرت شوية في الأفلام.. كان يلزمني اسم حلو يسّمع.. المنتج الله يستره هو اللي اختار اسم رمزي.. بقيت ليلى رمزي.. حاجة كده زي ليلى فوزي.. تعرف إن فيه ناس فاكرين إني أخت أحمد رمزي؟.. الله يرحمه بقى ويحسن إليه.. لما كان يشوفني يقولي إني بأفكره بنعيمة عاكف..

كان جدع زي السكرة..ماشفتش زيه غير رشدي أباظة.. خسارتك يا أستاذ رشدي.. اتخطف بدري قبل ما أشتغل معاه.. كان نفسي.. بس مافيش نصيب..

نرجع لأبويا عبدالصبور.. هو من مواليد سنة عشرين.. خد الابتدائية سنة ستة وتلاتين.. كانت شهادة معتبرة وليها قيمة.. أبوه اللي هو جدي.. كان جرسون في قهوة أفرنجي.. كلم زبون مهم شغله كاتب في وزارة الأشغال.. بعديها مات هو وستي.. كان اسمها خديجة وبتبيع شوية خضار على راس الحارة.. أبويا لغاية ما مات كان كاتب على قد حاله.. وجاب واسطة اتنقل لوزارة الصحة.. ما أعرفش ليه.. أكيد فيه سر.. كان ابن حظ وسميع وبتاع كوباية.. خمورجي يعني.. أمي أكبر منه بسنتين تلاتة.. اشتغلت كام سنة في صالة الست بديعة مصابني.. رقص ومونولوج.. حلفت إنها اشتغلت هناك مع فريد الأطرش ومحمد فوزي وإسماعيل ياسين.. بس هي بطلت بدري.. ما أعرفش اتجوزت أبويا ازاي وعرفوا بعض فين..

أخويا أنور أكبر مني بسنتين.. تعرف يا سي مختار يعني ايه ليلى وأنور؟.. يعني أنور وجدي وليلى مراد.. فكرك الأيام الحلوة دي ترجع تاني؟.. لا.. أيام زمان ما تتعوضش.. احنا كنا ناس فقرا قوي.. شقتنا أودتين وصالة في بيت قديم.. حارة مالهاش اسم في السيدة زينب.. لكن تصدق بالله؟.. قول لا إله إلا الله.. الحارة كانت أنضف من شوارع الزمالك والمهندسين دلوقتي.. اتولدت في البيت ده وعشت فيه لغاية آخر سنة أربعة وسبعين.. يعني سبته

من اتنين وأربعين سنة.. لكن ريحته لسه في مناخيري.. أمي كانت بتحط قصاري ورد بلدي وفل في البلكونة.. ولمتنا حوالين الطبلية كلها ضحك وفرفشة.. أبويا لما يسكر كان يغني مونولوجات لإسماعيل ياسين وشكوكو.. ويقول نكت.. فاكرة طشاش لما كان عندي سبع تمن سنين.. إني شفت أمي بترقص وهو يطبلها.. افتكروني نايمة وخدوا راحتهم.. واخد بالك يا أستاذ مختار؟.. أكيد كانوا بيحبوا بعض قوي.. حتى خناقاتهم كان دمها خفيف.. أبويا يتقمص ويولع سيجارة من سيجارة.. وأمي تضرب بوز شبرين وتنفخ وتبرطم بكام كلمة.. بعد شوية يقولها قومي يا زكية اعمليلنا كوبايتين شاي.. هو أنا قولتلك إن اسمها كان زكية ولا لا؟.. على فكرة.. صورة عبدالناصر كانت في الصالة وفي الأودتين والبلكونة.. الست أم كلثوم والست ليلى وجمال عبدالناصر كانوا أغلى حاجة في حياته.. ومعاهم الأهلي والخمرة طبعا.. كان أهلاوي متعصب وأخويا طلع زيه..

أنا وأمي مالناش في الكورة والسياسة.. تعرف يا سي مختار؟.. أنا اتولدت قبل الملك ما يمشي بكام شهر.. وآديني عايشة في زمن السيسي.. ومر عليا عبدالناصر والسادات ومبارك والمجلس العسكري ومرسي.. والمستشار اللي مسك ريس شويه.. هو اسمه ايه؟! طول عمري واخده جنب.. صحيح كنت مرعوبة من الإخوان.. بس رجعت قلت لنفسي ما خلاص يا بت يا ليلى.. انت عديتِ الستين وبطلتِ رقص.. يعني ها يعملوا فيكِ ايه؟.. على فكرة أنا ليا حكاية مع الإخوان هانتكلم عنها لما نحكي عن الجواز والغراميات..

المهم يا عم مختار.. بيتنا كان زي أي بيت مصري على قد حاله.. دخلت ابتدائي في مدرسة قريبة.. وسنة أربعة وستين خدت الابتدائية مع أخويا أنور.. أصله كان شقي ولعبي وسقط سنتين.. وكمان أخدت الإعدادية قبله.. جبت مجموع يدخلني ثانوي عام.. لكن التجارة سكتها أسهل.. أبويا قالي تلات سنين وتاخدي الدبلوم وتشتغلي.. أيامها كان كله بيشتغل.. أنور خد الإعدادية بالعافية بعد النكسة بسنة.. وكترت خناقاته مع أبويا فطفش من البيت واتطوع في الجيش.. كان وحيد وعنده إعفا.. الله يرحمه بقى.. ربنا افتكره في حرب تلاتة وسبعين..

أبويا وأمي ماتوا بحسرته.. أنا خلصت الدبلوم سنة سبعين واشتغلت في وزارة الصحة.. أبويا فضل يسعى لغاية ما جابني معاه عشان يحط عينه عليا.. الكلام ده كان في أول سنة واحد وسبعين.. أول ماهية جبت منها لأمي شال صوف.. وعطيت الباقي لأبويا.. تقدر تقول إني كنت ملكة جمال الحارة والحواري اللي حوالينا.. وشي حلو.. وجسمي ملفوف زي هند رستم وبرلنتي عبدالحميد.. دمي خفيف شربات.. وأي حاجة ألبسها تخيل عليا.. وأنا في الدبلوم اتهبل بيا أجدع شاب في الحارة.. كان في كلية الهندسة.. والناس بيقولوله يا باشمهندس محمود.. وأمه اسمها الست أم المهندس.. لما عرفت إنه بيحبني شرشحت في الحارة.. وقالت كلام كتير عن أبويا بتاع الكوباية.. وأمي اللي اتربت في حضن بديعة.. كانت عيطة كبيرة والناس اتلمت..

أبو محمود كان راجل غلبان قوي ومنكسر.. لم الدور وعزل بعد أسبوع.. عرفت إنهم راحوا سكنوا في الناصرية.. بعد الحكاية دي اتأكدت إن فيه حاجة غلط وعيب الناس عارفاها عن أمي وأبويا.. زي ما يكون على راسهم بطحة وعاملين عملة.. اتعلمت كمان درس مهم قوي.. أنا جميلة وفقيرة.. كله ها يطمع فيا.. لازم أحرص من الرجاله.. آخد وما أديش.. سمعت كلام ناعم حلو كتير في الوزارة.. وما فيش حد طبعًا كان ناوي على جواز.. تسالي وبس..

لغاية ما جه يوم كنت قاعدة أقلب في جرنان الأخبار.. قريت إنهم طالبين وجوه جديدة في فيلم.. غافلت المرحوم أبويا ورحت أشوف ايه الحكاية.. الكلام ده كان في آخر سنة واحد وسبعين أو أول اتنين وسبعين.. يعني من خمسة وأربعين سنة.. يا لهوي..

اوعى تكتب كده يا مختار.. اتصرف بطريقتك.. مش هاتغلب.. القعدة الجاية لو كان لينا عمر أحكيلك عن مشواري الفني.. مش اسمه كده برضه؟.. بس هاتبقى قعدة طويلة شوية.. انت مش بتشرب ليه؟.

الفصل الأول: النشأة

كان اختيار أبي لاسم ليلى متوافقًا مع ولعه غير المحدود بالمطربة والممثلة العظيمة ليلى مراد، فالطبيب الكبير من عشاق الغناء والسينما، ويتابع كل جديد في الساحة الفنية بشغف واهتمام. قبل عامين من ميلادي، عندما رُزق بأخي الشهيد، لم يتردد في تسميته "أنور"، تعبيرًا عن إعجابه بالممثل والمخرج متعدد المواهب أنور وجدي. بعد استشهاد أخي الوحيد في ملحمة العبور سنة ١٩٧٣، تأثر المرحوم أبي بفقده إلى درجة الجنون، وكذلك الأمر مع المرحومة أمي، وقد رحلا تباعًا بعد فترة قصيرة من استشهاده. على الرغم من الحزن الطاغي، كنت أرى أبي يستمع إلى أغنيات مطربته المفضلة ويبكي، ولن أنسى ما حييت دموعه الغزيرة التي تملأ وجهه وهو ينصت في صمت مغلف بالشجن إلى صوتها الملائكي وهي تشدو: "يا مسافر وناسي هواك".

أبي الدكتور رمزي حشمت الأناضولي ذو أصول تركية، لكن الأسرة تشبعت بروح الوطنية المصرية الصميمة. ولد سنة ١٩١٠، وتابع أحداث ثورة ١٩١٩ طفلا، وكان جدي حشمت بك أحد أبطالها البارزين. تلقى أبي تعليمه الثانوي في مدرسة السعيدية، وتخرج في كلية الطب سنة ١٩٣٥. سافر إلى لندن لاستكمال دراسته العليا والحصول على الدكتوراه، لكنه عاد مضطرًا قبل الحصول على الدرجة العلمية لاشتعال الحرب العالمية الثانية، وعمل في

وزارة الصحة. بعد سنوات تزوج أمي، نازلي هانم البارودي، وهي من عائلة شركسية عريقة، وتمت بصلة قرابة إلى الشاعر محمود سامي البارودي، بطل الثورة العرابية الذي شغل منصب رئيس الوزراء.

أخي الشهيد أنور من مواليد نوفمبر ١٩٤٩، وجئت إلى الدنيا بعده بعامين تقريبًا: أول يناير ١٩٥٢. كلانا يحمل ملامح تركية شركسية هي خليط موروث من أبي وأمي، وعندما بدأت الرقص والتمثيل في منتصف السبعينيات، انتشرت شائعة تقول إنني شقيقة الممثل الرائع أحمد رمزي، واعتمد مروجو هذه المقولة على أن والد الفنان الكبير طبيب مثل أبي، لكنهم لا يعرفون أن أباه هو الدكتور محمود بيومي، و"رمزي" مجرد لقب شهرة لا أكثر.

ولدت في شقة فسيحة بحي الدقي، وقرب نهاية الخمسينيات انتقلنا إلى الفيلا التي بناها أبي في المعادي. استمرت إقامتي في الفيلا الأنيقة، ذات الحديقة الصغيرة، حتى استشهاد أخي، ثم رحيل أمي وأبي بعد فترة وجيزة. لم أحتمل البقاء فيها بعد غيابهم، وانتقلت إلى شقة في الزمالك أقمت فيها أكثر من عشر سنوات، ومنها إلى فيلا المهندسين التي أعيش فيها حتى الآن.

نشأت في بيئة راقية متحضرة مثقفة متدينة متسامحة، وقد تفرغ أبي لعمله في وزارة الصحة ولم يفكر في فتح عيادة خاصة. شغل منصب وكيل وزارة الصحة سنة ١٩٦٥، وعندما أحيل إلى المعاش تفرغ للقراءة والعبادة، لكنه لم يتحمل صدمة رحيل أخي وأمي، فانتقل إلى جوار ربه صيف سنة ١٩٧٤.

تخرجت أمي في الجامعة الأمريكية، ولم تلتحق يومًا بوظيفة حكومية. تعلمت منها أصول العمل الاجتماعي التطوعي الذي أنجزت فيه الكثير، وكانت تنفق جل وقتها في المكتبة التي تضم آلاف الكتب في شتى المعارف، بالعربية والإنجليزية والفرنسية. كنا صديقتين مقربتين، وقد عرفت منها أن أبي كان يكتب الشعر في مطلع شبابه، ونشر عددًا من القصص القصيرة، لكنني لم أقرأ له شيئًا للأسف.

عند حصوله على الثانوية العامة سنة ١٩٦٨، بمجموع كبير يؤهله لدخول كليات القمة المتميزة، أصر أخي أنور على الالتحاق بالكلية الحربية. عارضت أمي بشدة، واتخذ أبي موقفًا محايدًا، وأصر أنور على قراره. تخرج وشارك في معركة العبور وهو يحمل رتبة ملازم أول، وبلغنا نبأ استشهاده قبل أيام من إعلان وقف إطلاق النار. بعد علمها بالخبر، أُصيبت أمي بنوبة قلبية توفيت بمضاعفاتها في أول نوفمبر ١٩٧٣، أما أبي الذي حاول أن يبدو متجلدًا متماسكًا، فقد لحق بها بعد شهور.

وجدت نفسي وحيدة تمامًا، وكنت قد تخرجت في قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة، قبل شهور من الحرب واستشهاد أنور. عشت شهورًا متصلة في حداد وكآبة، ثم غادرت المعادي موطن الذكريات إلى الزمالك، وبدأت عملي الفني الذي لم تكن عروضه قد توقفت خلال عامين سابقين.

لم أكن طالبة سياسية، وانصرفت تمامًا عن المشاركة في المظاهرات الطلابية الاحتجاجية. كان أبي ينصحني دائمًا بالابتعاد عن السياسة، وقد عاصرت عهود عبدالناصر والسادات ومبارك والمجلس العسكري ومحمد مرسي والرئيس المؤقت المستشار عدلي محمود. لكل فترة إيجابياتها وسلبياتها، باستثناء السنة الكبيسة لحكم الإخوان المسلمين، أما الرئيس عبدالفتاح السيسي فأنا أحبه إلى درجة العشق، وأدعو له بعد كل صلاة.

أغلب صديقاتي المقربات من خارج الوسط الفني، وتعود معرفتي بهن إلى أيام المدرسة الثانوية والجامعة. يقولون إنني كنت ملكة جمال المعادي في مطلع السبعينيات، لكنني لا أتحمس لهذا الرأي. صحيح أنني جميلة الوجه والجسد والروح، وأتمتع بأنوثة طاغية وجاذبية ساحرة، لكن تعبير "ملكة الجمال" لا يروقني. لكل امرأة في العالم جمالها الخاص، ولا توجد امرأة قبيحة. لا أنسى ما كان يقوله لي المرحوم أحمد رمزي عندما تعارفنا: أنت خليط من نعيمة عاكف وهند رستم ونادية لطفي، مع خفة دم سعاد حسني ورقة فاتن حمامة. يرحمه الله، كان إنسانًا رائعًا وفنانًا عظيمًا، ولسوء حظي لم أنل شرف العمل معه.

كان رشدي أباظة فتى أحلامي في سنوات المراهقة وبواكير الشباب، أما المرحوم شريف بهجت، ابن المرحوم السفير بهجت شريف، ساكن الفيلا المجاورة لنا في المعادي، فهو أول من قال لي "أحبك". كنت في الصف الثاني الثانوي، وهو في السنة الأخيرة من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. عندما

عرفت أمي، ولم أكن أخفي عنها شيئًا، نصحتني بتأجيل التفكير في الحب والزواج حتى أنضج وأنتهي من التعليم، وقد تدخل القدر لينهي مشروع الحب الأول، فتوفي شريف في حادث مروع بعد أيام من تخرجه.

مثلت ورقصت وغنيت في المدرسة الثانوية والجامعة، ولم يعترض أبي أو أمي، فهما عاشقان للفن والثقافة الرفيعة، لكنني عندما تلقيت عرضًا لبطولة فيلم سينمائي استعراضي قبل شهور من تخرجي، رفض أبي بشدة. عرفت عندئذ أنه يوافق على هوايتي للفن دون الاحتراف، وقالت أمي إنها تقدر الفنانات وتحترمهن، ولها صداقات مع كثيرات منهن، لكنها تخاف عليّ من الوسط الفني لأنه لا يخلو من عناصر سيئة.

التزمت برأي أبي وتحفظ أمي، ولم أتجه إلى الاحتراف إلا بعد وفاتهما. البداية مع دور صغير جدًا سنة ١٩٧٥، وامتد مشواري الفني حتى اعتزالي واعتكافي سنة ٢٠٠٥، وأمام هذا المشوار الحافل أتوقف في الفصل التالي.

.....

والله كلامك زي العسل يا سي مختار.. الله ينور عليك ويزيدك من فضله.. شوف بقى.. أنا هاقولك الحق والبركة فيك.. بايديك الحلوين دول ومخك النور.. تتصرف وتشيل الشوك والحاجات اللي مش هيا.. قولتلي يا سيدي.. مشواري الفني ابتدا ازاي؟.. بالصدفة قريت إعلان في الأخبار.. عايزين وجوه جديدة في فيلم استعراضي بالألوان.. الكلام ده كان في آخر سنة واحد وسبعين.. ولا يمكن أول اتنين وسبعين.. والنبي مش فاكرة.. هو أنا يعني مخي دفتر؟.. بس هو كان يوم شتا جامد.. والدنيا بتمطر.. تاني يوم لبست فستان أحمر قصير فوق الركبة بشبر.. وعليه بالطو أسود محزق.. اتخيل انت بقى.. بشرتي البيضا زي الحليب.. ووشي القمر المنور.. عملوا ايه في المكتب.. شقة صغيرة في عمارة قديمة عند المعبد اليهودي في شارع عدلي.. ثورة يا أستاذ مختار.. ودين محمد ثورة..

رحت لقيت عشرين خمسة وعشرين بنت.. الشهادة لله فيهم اتنين تلاتة حلوين قوي.. يفكوا من على حبل المشنقة. لكن الباقي عادي وأي كلام.. الراجل العجوز اللي قاعد يسجل الأسماء.. قعد يبصلي قوي.. وحسيت من عينيه إني أحلى واحدة في البنات.. بعد ما كتب البيانات قالي إن الأستاذ رياض ها يقابلنا بالدور.. قعدت أفكر وأسأل نفسي.. مين الأستاذ رياض ده؟.. مخرج ولا منتج ولا ممثل ما أعرفوش؟..

لما دخلت أقابله لاقيت راجل عنده ييجي خمسين سنة.. صابغ شعره ومتعطر ومتغندر.. عرفت بعد كده إنه ريجسير.. يعني بيورد الأنفار للسيما..

الحيطان مليانة صور لمحمود المليجي ونادية لطفي وفريد شوقي ورشدي أباظة وسعاد حسني وزبيدة ثروت.. شاور عليهم وقالي إني ممكن أكون زيهم..

المهم يا سيدي.. يومها كانت أول خطوة.. عطيته عنواني في الشغل.. ونبهت عليه إن أبويا وأمي ما يعرفوش حاجة.. وعدني إنه هايعدي عليا أو يبعتلي حد لو فيه أوردر.. طبعًا كان لازم أبلغ أبويا.. حكم الكدب مالوش رجلين.. بيني وبينك كنت خايفة قوي.. لكن اللي طمني إن أول حاجة أبويا الله يرحمه سألني عنها.. هايدوني كام في اليوم؟.. ساعتها عرفت إن ما فيش مشاكل.. حتى لما رياض بعتلي الراجل العجوز ورحت أقابله.. وعرفت إني ها أرقص مش ها أمثل. حسيت إن أبويا مش هايعارض..

على فكرة أول فيلم عملته كان اسمه السكرية.. مع الأستاذ حسن الإمام.. طبعًا اسمي ما نزلش في الإعلانات.. كان فيه حتة صغيرة كده في الفيلم عن كباريه ورقص وغنا.. لا والنبي يا عبده.. كنا عشر بنات ولا خمستاشر.. بنتهز وحوالينا شوية أفندية لابسين طرابيش.. الفيلم اتعرض سنة تلاتة وسبعين.. وكنت عملت بعديه فيلمين تلاته مش فاكرة أسامهم.. الأهم من دا كله يا سيدي إني اتجوزت.. عارف مين؟.. عمك رياض.. جه لأبويا وخطبني.. ما كانش فيه فرح ولا حاجة.. عشت على ذمته سنتين.. أنا معايا قسيمة الجواز.. أغسطس سنة اتنين وسبعين..

بعد ما اتجوزته شفت إسكندرية أول مرة.. بس أمي لغاية ما ماتت ما كانتش راضية عن الجوازة.. تضرب كف بكف وتقول شابة عندها عشرين سنة تتجوز واحد أكبر من أبوها؟.. وتغني زي عزيز عثمان ما كان بيتريق على نجيب الريحاني.. بطلوا ده واسمعوا ده.. الغراب يا وقعة سودا.. جوزوه أحلى يمامة..

أبويا كان مصاحبه وبيشرب معاه كل ليلة.. كانوا في سن بعض.. بيني وبينك هم الاتنين استغلوني.. الله يرحمهم بقى.. بعد أبويا ما مات وحصل أمي وأخويا أنور.. رياض اتغير.. طول ايده عليا.. كان بياكل عرقي.. هو اللي وداني شارع الهرم وشغلني في الأفراح.. وكل فلوسي مضيعها ع الخمرة والقمار.. بصراحة طهقت.. وقبل ما نكمل السنتين اتطلقنا وكل واحد راح لحاله.. الله يرحمه بقى ويتجاوز عن سيئاته.. وعلى فكرة سيئاته كتير بس ربنا أمر بالستر.. ضحك عليا وفهمني إني ها أبقى زي سعاد حسني.. وفي الآخر رسيت على شوية أدوار كومبارس بكام جنيه..

أجرت شقة في الزمالك وعشت فيها لوحدي.. وركزت على الرقص.. بدأت أتعرف في شارع الهرم.. وبعد الانفتاح العملية زاطت والأشيا بقت معدن.. لكن شفت الموت بعينيا في الهوجة بتاعة سبعة وسبعين.. بص يا سي مختار.. ربنا كرمني آخر كرم.. وقعدت عشر سنين أرقص واشتهر وأحيي أفراح.. ما يمنعش برضه أطلع في دور صغير ما حدش ياخد باله منه.. لكن من سنة خمسة وتمانين بدأت أعمل أفلام كتير قوي.. فيلمين تلاته في

السنة.. كانوا بيقولوا عليها أفلام مقاولات.. ما أعرفش ليه.. لكن يظهر إن دي شتيمة الأفندية.. الفيلم من دول كان يتشطب في أسبوعين تلاتة.. ويتكلف ملاليم.. يتعرض أسبوع ولا ما يتعرضش خالص.. ويتعبى فيديو.. واللي بعده.. أنا كسبت فلوس كتير قوي من الأفلام دي.. ولما أتجوزت المخرج جمال أنور.. الله يرحمه ويحسن إليه.. أدواري كبرت.. لكن عمري ما كنت بطلة.. كان لازم يحطوا اسم مشهور في الأول.. حتى لما بقيت أنا اللي بأنتج.. تعرف يا سي مختار.. كنت بأمثل وأغني وأرقص طبعًا.. وألبس أحلى فساتين وأعمل أجدع مكياج.. وأمثل قدام العتاولة الكبار اللي كنت بأسمع عنهم.. لكن ما فيش نصيب.. شوية بشوية لقيت اليأس ركبني.. كأن معمولي عمل.. نفسي انسدت عن التمثيل.. وشركة الإنتاج فضيتها.. جربت أعمل مسلسل بس ما كملش واتعطل.. انت بتصدق في السحر والعكوسات يا أستاذ مختار؟.. أنا بأصدق.. السحر في القرآن يا أخويا..

المهم.. في يوم صحيت لقيت نفسي عندي خمسة وأربعين سنة.. عمرك شفت ممثلة اشتهرت واتعرفت في السن دي؟.. ما تجيش طبعًا.. ما ينفعش.. بيني وبينك قلت خلاص ما فيش رجا من صنعة التمثيل دي.. ولما يجيني دور ألاقيه رقاصة ما بتقولش كلمتين على بعض.. الله الغني.. اللي يخرج من داره يقتل مقداره.. وكل واحد أولى بكاره اللي ربنا رايده.. لما اتجوزت الله يرحمه صفوت شريف.. فضل يلح عليا نعمل فيلم مع بعض.. وكنت خلاص ها أوافق.. بس ربنا افتكره.. زود في الشم شوية وراح فيها.. عمره كده..

تصدق بالله.. قول لا إله إلا الله.. التمثيل ده رزق.. مقدر ومكتوب.. ربك وما يريد يا عم مختار.. أنا مش ها أتكلم عن تحية كاريوكا وسامية جمال ونعيمة عاكف.. ولا حتى نجوى فؤاد وسهير زكي ونعمت مختار.. لا يا سيدي.. خلينا مع اللي في سني وظروفي.. أكبر بكام سنة ولا أصغر بكام سنة.. فيفي عبده ولوسي مثلا.. ربنا عطاهم.. ملك الملوك إذا وهب يا أستاذ.. مش قصدي فلوس.. مستورة بزيادة والحمد لله.. عملوا أفلام ومسلسلات ومسرحيات وربنا كرمهم.. حكمته كده.. من ناحية الجمال.. أنا اجمل.. حلاوة الجسم وخفة الدم.. أنا أحلى وأخف منهم.. يبقى ايه السبب بقى؟.. أرزاق والله العظيم..

المهم يا أستاذ مختار.. أنا عشت حياتي بالطول والعرض.. لفيت الدنيا.. رقصت في أمريكا والخليج.. وعملت ثروة بالملايين.. جربت حظي مع الرجالة كتير وما اتوفقتش.. الجواز قسمة ونصيب.. لما كملت خمسين سنة.. وكنت أيامها متجوزة خالد سيد.. تعرفه طبعًا؟.. حسيت إن كلمة الخمسين دي دمها تقيل.. صحيح صحتي كويسة.. ومحافظة على جسمي كأني بنت تلاتين سنة.. لكن التعب بدأ يبان جوايا.. بعدما كنت بأرقص كل يوم.. بقيت أرقص مرتين تلاتة في كل أسبوع.. بيني وبينك كان صعبان عليا إن رقاصات زي فيفي ولوسي ودينا بقوا فالحين في التمثيل.. سيما ومسرح وتليفزيون.. وأنا لا.. سنة ألفين وخمسة عملت أول عمرة.. رجعت منها قعدت شهر من غير رقص.. وجربت أبطل الخمرة كمان.. بس رجعت للشغل والشرب..

أنا بأشرب كتير.. يمكن ورث عن أبويا.. قلت ألحق نفسي قبل ما أتهتر.. عنها يا سيدي بطلت رقص.. حسبت الفلوس اللي عندي لقيتها تكفيني لو عشت ميتين تلتميت سنة كمان..

حجيت سنة ألفين وسبعة.. ورجعت لبست الحجاب شهر وخلعته.. وما قدرتش أبطل شرب.. بس من يومها اختصرت الناس.. الاختصار عبادة.. الواد تامر كان آخر حظي في الجواز.. تقدر تقول إني زهدت في الرجالة.. ولما نفسي تهفني والشوق ياخدني.. باتصرف.. من غير جواز ووجع دماغ..

تعرف.. بعد هوجة يناير بكام شهر.. كنت في الساحل الشمالي.. قابلت هناك مديحة.. زميلتي في الشغل لما كنت في وزارة الصحة.. ربما كرمها واتجوزت مقاول غني.. خدتني بالحضن وقالتلي ازيك يا حاجة ليلى.. عرفت إنها سابت الشغل من زمان.. وعرفت كمان إنها مخلفة تلات عيال.. ولدين وبنت.. كلهم متجوزين وعندهم عيال.. يعني جدة وفرحانه بولادها وأحفادها.. ربنا يخليهم يا رب.. لكن أنا ايه؟.. وحدانية من غير ونس.. رجعت الشاليه وقعدت أعيط وأشرب وحدي لغاية النهار ما طلع.. اللهم اخزيك يا شيطان.. هي قلبت نكده كده ليه؟.. اشرب يا مختار.. اشرب وانبسط.. ألا انت عمرك ما فكرت تتجوز؟.. على فكرة دا كل اللي ممكن أقوله عن مشواري.. البركة فيك بقى.. البركة فيك..

الفصل الثاني: رحلتي مع الفن

في صيف العام ١٩٧٤، تكتمل منظومة الآسى والوحدة برحيل أبي. على الرغم من محاولاته للتماسك والتجلد، فإن فقد الابن الوحيد والزوجة المحبة في فترة لا تزيد على عشرة أيام، كان عبئًا قاسيًا يفوق القدرة على التحمل والصمود والاستمرار في الحياة. جنازته المهيبة الحاشدة بمثابة التعبير العملي عن مكانته ومحبة الناس له، وقد شارك فيها عدد غير قليل من عائلتي أبي وأمي، لكنني اكتشفت أنني لا أعرف أسماءهم جيدًا، ولا أتذكر درجة القرابة التي تجمعني بهم، فهم موزعون في أحياء مختلفة داخل القاهرة، ويقيم بعضهم في الإسكندرية والمنصورة والإسماعيلية وأسيوط. لم يكن أبواي ممن يميلون إلى الاختلاط والحياة الاجتماعية الصاخبة، وهكذا وجدت نفسي وحيدة تمامًا. ميراثي من النقود المودعة في البنك يقترب من مئة ألف جنيه، وهو مبلغ باهظ بمقاييس الأجور والأسعار في المرحلة التاريخية، فضلاً عن الفيلا والسيارتين والمشغولات الذهبية لأمي ومعاش أبي. لا وجود للمعاناة المادية وأشباح الحاجة، لكن الوحدة لا تقل قسوة عن الفقر. كان قراري ببيع الفيلا ضروريًا للابتعاد عن موطن الذكريات السعيدة القريبة التي تبخرت، والانتقال إلى شقة في الزمالك محاولة لبداية حياة جديدة، وهي الشقة التي عشت فيها أكثر من عشر سنوات حتى انتقلت للإقامة في فيلا المهندسين التي أقيم فيها حاليًا. خلال هذه المرحلة التي لا تُنسى في حياتي، كان المرحوم الأستاذ رياض حمودة هو

الشخصية الأبرز والأكثر تأثيرًا في تحديد مساري. إنه واحد من أصدقاء أبي، يصغره بعشر سنوات تقريبًا، وصاحب شركة للإنتاج الفني. فشلت كل جهوده السابقة لإقناع صديقه الحميم بالموافقة على عملي في السينما، وعندما كرر عرضه في المناخ الجديد المغلف بالكآبة والسواد، وجدت نفسي أندفع إلى القبول والموافقة. تعاقد معي على أدوار صغيرة في ثلاثة أفلام، وكانت وجهة نظره أن النجوم لا يولدون نجومًا منذ الظهور الأول، ودلل على ذلك بمحمود ياسين وعادل إمام، الأشهر في منتصف السبعينيات على الرغم من البداية المتواضعة المحدودة التي تقترن بعدد من الأدوار الثانوية والهامشية.

في اثنين من هذه الأفلام، لعبت دور راقصة في فرقة استعراضية، لا تنطق إلا بخمس كلمات مع زميلاتها، وأكد لي رياض بعد عرض الفيلمين اللذين لم يحققا نجاحًا يُذكر، أن موهبتي في الرقص مذهلة وتؤهلني للاحتراف واحتلال الصدارة والتفوق على أشهر راقصات مصر: ناهد صبري وزينات علوي ونجوى فؤاد ونعمت مختار وسهير زكي. على الرغم من المؤهل الجامعي الذي أحمله، والأسرة الأرستقراطية العريقة التي أنتمي إليها، فقد كنت من المولعات بالرقص الشرقي وعلاماته البارزة: تحية كاريوكا وسامية جمال،

أما نعيمة عاكف فهي مثلي الأعلى في التمثيل والرقص معًا. تدريجيًا، وجدت أنني أحترف الرقص وأتراجع عن التمثيل، وبرعاية رياض تعاقد معي أكبر ملهى في شارع الهرم، وكان هو أيضًا من شجعني على المشاركة في الأفراح الراقية.

في غضون ذلك، فوجئت بعرض الزواج الذي كانت له مقدمات قرأتها في عينيه، كأنه يحبني ويخاف التصريح بحبه. ترددت بسبب فارق السن الذي يصل إلى ثلث قرن تقريبًا، لكنني وافقت في النهاية.

لم يستمر الزواج إلا أقل من عامين، وقد اكتشفت سريعًا أنني أبحث فيه عن أبي والأسرة البديلة، وبفعل الفارق الشاسع في العمر تحولت غيرته إلى ما يشبه المرض الميئوس من شفائه، وكان المزعج بالنسبة لي أن يسمح لنفسه بالشك في سلوكي أو توهم أنني قد أخونه، فمثل هذا النمط من التفكير يمثل إهانة لا يمكن أن أغفرها أو أبررها. وصلنا بعد شهور من التوتر إلى محطة الطلاق الهادئ المتحضر، واستمرت صداقتنا على نحو ما حتى وفاته في السنوات الأولى من التسعينيات.

تعلمت من تجربتي القصيرة مع رياض أن أتمسك باستقلاليتي، وألا أسرف في الخلط بين الذاتي والموضوعي. الحياة الشخصية تختلف بالضرورة عن العمل، والثقة غير المحدودة ليست فعلاً مستحبًا، دون نظر إلى مكانة الطرف الآخر في العلاقة. بعد نهاية زيجتي مع رياض، تفرغت لعملي دون تفكير في البكاء على الأطلال واللبن المسكوب، وفي زيجاتي التالية لم أسمح بتكرار التداخل الذي يصنع أجواء التوتر والاضطراب.

سيذكر لي التاريخ، إذا كان منصفًا عادلاً، أنني اتبعت منهجًا مختلفًا في التعامل مع الرقص الشرقي، فالأمر عندي لم يكن عشوائيًا يخضع للصدفة.

تقوم فلسفتي على عدد من المحاور والركائز التي يمكن إيجازها على النحو التالي:

أولاً: الرقص تكوين جمالي ذو قواعد يمكن قياسها، والتحكم في إيقاع الجسد هو المسئول عن التشكيل الفني الذي قد لا يدرك المتلقي أبعاده، لكنه يتأثر به.

ثانيًا: الإطار التعبيري جوهر الرقص وسره الكامن وسحره الذي يرتقي به من دائرة الاهتزاز الارتجالي غير المحسوب، إلى آفاق الانضباط الذي نجده، بدرجات متفاوتة، في الشعر والتصوير والموسيقى والنص الأدبي.

ثالثًا: الهدف من بدلة الرقص هو الانتصار لحرية لجسد وتجسيد سحر الأنوثة، والانحراف عن هذا المسار إلى مراودة الابتذال والإثارة الرخيصة، كما يشيع كثيرًا للأسف، لا يعبر عن الرقص الشرقي الحقيقي كما ينبغي أن يكون.

الرقص عندي رسالة سامية وفن نبيل، أناضل بكل ما أملك من إمكانات لتطويره والارتقاء به. لأن دافعي للاحتراف لا ينبع من احتياج مادي، فقد تربعت سريعًا على القمة، واكتسبت شهرة مدوية بعد سنوات قلائل من العمل. في المقابل، لم أحقق أحلامي السينمائية، فخلال سنوات الازدهار هذه لم أشارك إلا في أفلام قليلة، وقعت فيها للأسف الشديد في فخ النمطية، عندما قبلت دور الراقصة التي لا تمثل، ولاشك أن هذه القولبة قد حالت دون الانطلاق الذي كنت آمله وأتطلع إليه.

في منتصف الثمانينيات، اقتربت من تحقيق التوازن المنشود بالجمع بين الرقص والتمثيل. بين عامي ١٩٨٦ و١٩٩٤، قدمت عشرين فيلمًا، تنوعت فيها أدواري بين المرأة العاملة، وربة الأسرة، وسيدة الأعمال قوية الشخصية، وتاجرة المخدرات في منطقة شعبية؛ ولا أنسى أهم أدواري على الإطلاق في فيلم "حريقة حريقة"، حيث جسدت شخصية زعيمة عصابة متخصصة في سرقة الأطفال حديثي الولادة وبيعهم للعاقرات من النساء.

بعض النقاد والصحفيين يقولون عن أفلامي هذه إنها تنتمي إلى ما يسمونه بـ"أفلام المقاولات"، لكنني لا أوافق على المصطلح لأنه غير قابل للتحديد. الفيلم محدود التكاليف ليس تهمة، والقصة ذات الأبعاد الإنسانية المؤثرة، التي تناسب العقول البسيطة، ليست جريمة. لقد تعرضت لهجوم ظالم متحامل بعيد عن الموضوعية، وعندما أشاهد الآن أفلامي القديمة وأقارنها بما كانت تقدمه نادية الجندي، الموصوفة بأنها نجمة الجماهير، أقول إن أفلامي أكثر جدية ومعقولية، لكن المقاييس مختلة لأسباب غير فنية.

قرب منتصف التسعينيات، توقفت تمامًا عن التمثيل، ومع وفرة الأعمال المعروضة عليّ، صممت على الرفض والاعتزال الهادئ بلا ضجيج. المناخ لم يعد مناسبًا، والشللية تلعب دورًا مدمرًا، وهي آفة لا يمكن أن أتورط فيها. قررت في حسم أن أركز على الرقص وحده، وسعيت بكل جهد ممكن للحفاظ على مكانتي التي لا يشكك فيها أحد: راقصة مصر الأولى. ولأنني امرأة واقعية عقلانية، كان منطقيًا أن أقنع بالعمل في الملاهي الليلية والفنادق ثلاثة أيام

أسبوعيًا، وأكتفي بالمشاركة في فرح واحد كل أسبوع. لو أنني أفكر في المال ما اتخذت قرارًا كهذا، لكن المال لم يكن يومًا هو ما أسعى إليه.

بعد ترشيد العمل وتقليص أيامه، فكرت وشرعت في تأليف كتاب شامل عن تاريخ الرقص في مصر، وكنت أؤمل أن يكون المرجع الأشمل والأهم. في سبيل هذا الهدف، قرأت عشرات الكتب بالإنجليزية والفرنسية، لكنني واجهت صعوبة حقيقية في العثور على مواد مفيدة باللغة العربية. لا أحد من رواد الثقافة المصرية يتعامل مع فن الرقص الشرقي بالجدية المأمولة، وقد تجد في المكتبة العربية عددًا محدودًا من الكتب الجيدة عن بعض عمالقة التمثيل المسرحي والسينمائي، لكنك لن تجد كتابًا واحدًا عن راقصة مهمة ذات بصمة لا يمكن إنكارها، مثل تحية كاريوكا وسامية جمال ونعيمة عاكف.

بعد اليأس من إنجاز مشروع كتابي عن تاريخ الرقص المصري، فكرت جديًا في تأسيس معهد متخصص لإعداد وتأهيل الراقصات، والهدف هو القضاء على الفوضى والعشوائية، لكنني فوجئت بهجوم عنيف على الفكرة بعد أن تم تسريبها للصحافة، ولم يكلف أحد نفسه أن يسأل عن طبيعة المعهد والمواد المقترح تدريسها فيه وساعات التدريب العملي للطالبة خلال عامين من الدراسة المنظمة المحسوبة بشكل عملي. لأنني لا أحب المعارك العبثية،

قررت إغلاق الملف، وما هي إلا سنوات وتحقق ما كنت أخشاه: الانتشار السرطاني للراقصات الأجنبيات وتراجع مكانة الراقصة الوطنية.

مطلع العام ٢٠٠٥ ذهبت إلى الأراضي المقدسة في رحلة عمرة، عدت منها لأحصل على إجازة طويلة أتأمل فيها فصول حياتي وما فيها من تحولات. وجدت أن الاعتزال ضروري، فقد قدمت كل ما يمكن تقديمه من عطاء، ولم يعد عندي الجديد الذي يثري الحياة الفنية ويضيف إليها. توقفي عن الرقص لا يعني التوبة أو الشعور بالذنب، فلا جريمة أو خطيئة تستدعي التكفير كما يتوهم بعض من يتحدثون بغير علم. الفن ليس حرامًا، ووجود عدد من المنحرفين والمنحرفات في الساحة الفنية لا يعني إدانة المهنة بشكل عام، فما أكثر الفاسدين من الأطباء والمحامين والصحفيين والمدرسين والموظفين العمومين، فهل يعني هذا تحريم وتجريم الطب والمحاماة والصحافة والتعليم والوظيفة؟. لست نادمة على السنوات الطوال التي احترفت فيها الرقص وإسعاد الناس، ويمكن القول إن تفرغي للعبادة والقراءة والأعمال الخيرية، وهذا كل ما يشغلني الآن، بمثابة النهاية المريحة التي تتوافق مع مرحلتي العمرية من ناحية وحبي للهدوء والابتعاد عن الضجيج من ناحية أخرى. أتواصل مع عدد قليل من الأصدقاء والصديقات، وأتابع الأفلام والمسلسلات،

أما الراقصات الجدد فأشعر معهن بالغربة وعدم الارتياح. الغالبية الساحقة من الوافدات، ولا شيء في أدائهن يعبر عن الشخصية المصرية. جمالهن زاعق مصنوع بلا مذاق، وملابسهن مثيرة مستفزة، والقضايا التي تلاحقهن تؤكد أن المستقبل القريب لا يحمل أملاً في ظهور راقصات مصريات موهوبات على غرار نجمات الأجيال السابقة.

زي الفل يا مختار يا حبيبي.. الله ينور عليك.. والله العظيم انت صنايعي بريمو ما فيش زيك.. بتعمل تسبيكة ما فيش منها.. حظك قليل صحيح.. لكن مخك دهب.. اوعى تكون زعلان من الدنيا.. ربنا هو اللي بيوزع الأرزاق.. سبحانه وتعالى ليه حكمة.. يمكن ما نعرفهاش.. وبعدين الرزق مش فلوس وشهرة بس.. لا.. نعم ربنا كتير.. وكل واحد بياخد نصيبه.. ضحكتني يا شيخ.. بقى المرحوم رياض كان صاحب شركة إنتاج؟.. وسعت منك دي.. الله يرحمه بقى..

شركة ايه بس.. دا كان كل كام سنة يتلم على بنت يشغلها وياكل عرقها.. ويمكن يتجوزها.. مع إن مالوش في النسوان قوي.. نسيت أقولك إنه مات في السجن.. قضية آداب.. ما علينا.. الكلام ده فات عليه خمسة وعشرين سنة.. مين فاكر.. الدنيا تلاهي.. بيني وبينك فيه كلام كتير من اللي انت كاتبه أنا مش فاهماه.. فلسفة ايه بس اللي في الرقص.. النبي عربي.. الحكاية كلها شوية فرفشة وأنس.. موضوع الكتاب ده حلو قوي.. بس انجليزي وفرنساوي يا مفتري؟.. ماشي الحال.. إنما تصدق بالله؟.. قول لا إله إلا الله.. حدوتة المعهد دي كانت على بالي.. مش سنتين سنتين يعني.. ولا محاضرات ونظري وعملي وكده.. لا.. لكن والله فكرت ألم البنات وأعلمهم وأكسب فيهم ثواب.. شوية بشوية لقيت الموضوع فيه وجع دماغ وتصاريح ومصنفات فنية وآداب.. دوشة.. خلعت بدري بدري.. بس والنبي عندك حق في حكاية الست نادية الجندي دي.. رزقها تحت رجليها.. الفرق اللي بيني وبينها هو الفرق بين جوازي

من رياض وجوازها من عماد حمدي.. ربنا هو اللي بيسبب الأسباب يا مختار.. أنا عملت أفلام أحسن منها.. مقاولات مقاولات بس أحسن منها.. يعني تصدق يا راجل إن واحدة بطولها تخش الموساد وتستخبى تحت المكتب وتسرقهم.. ولا يخيل عليك إنها حلوة لدرجة إن أي راجل يشوفها يريل عليها؟.. أرجع أقولك رزقها كده..

انت كنت بتقول ايه؟.. أيوه افتكرت.. عايز تعمل فصل في الكتاب عن الدروس اللي طلعت بيها من دنيتي.. قول يا باسط.. أنا من خمسة وأربعين سنة كنت بنت صغيرة حلوة.. واخدة دبلوم تجارة.. أبوها موظف غلبان سُكري.. وأمها ست بيت.. وأخوها الوحيد طفش واتطوع في الجيش..

لما اتوظفت في وزارة الصحة كان كل أملي أتجوز شاب ابن حلال.. وأجيب عيال.. وأبقى زي غيري.. بس ربنا كان مقدر سكة تاني.. كله مقدر يا حبيبي.. واللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين.. أجيب م الآخر.. بص يا سيدي.. خلاصة الخلاصة يعني.. أنا كنت بأرقص وأعري جسمي.. وأسمع كلام وسخ من الزباين السكرانين.. لكن ورحمة أبويا عمري ما ضربت حد ولا آذيت بني آدم.. اتجوزت كتير صحيح.. رسمي وعرفي.. ومشيت مع كام راجل في الحرام.. صحيح.. شربت وضحكت وسافرت واتفسحت.. أنا مش ملاك يا أستاذ مختار.. مش رابعة العدوية اللي بتنور في الضلمة.. عكيت كتير.. ربنا يسامحني.. لكن أنا مش شيطان برضه.. بقالي ييجي عشر سنين بأعمل عمرة كل سنة.. وحجيت كتير.. مش قادرة أبطل شرب.. الله غفور رحيم.. بأفطر في

رمضان عشان الصيام بيتعبني.. لكن بأطلع كتير لله.. وبأعمل موايد رحمن من غير اسم.. وأوزع صدقات في السر.. بيني وبين ربنا عمار.. دي تشيل دي.. بيقولوا الرقص حرام؟.. ماشي يا سيدي.. ربنا هو اللي يحاسب.. والرك ع النية.. ربك رب قلوب.. الأعمار بيد الله.. والموت علينا حق..

تعرف؟.. أنا كاتبة وصيتي عند الأستاذ عبدالرحيم محسن المحامي بتاعي.. راجل عظيم من أولياء الله.. كل فلوسي اللي في البنك.. اتنين وعشرين مليون جنيه.. سبتهم لمستشفى سرطان الأطفال.. أنا عايشة من الفوايد بتاعتهم.. عندي دهب وألماظ بأكتر من تلاتة مليون جنيه.. متبرعة بيهم لجمعية الأورمان عشان يجهزوا عرايس يتامى وغلابة.. الفيلا دي.. ما أعرفش تمنها كام دلوقتي.. لكن أكيد أكتر من خمستاشر مليون.. ويمكن عشرين.. انت عارف تمن متر الأرض في المهندسين كام؟.. وصيتي يبيعوها ويحطوا تمنها وديعة لأعمال الخير..

أنا مقطوعة من شجرة ومالیش حد يا مختار.. والحمد لله عايشة مستورة.. ونفسي لما أموت أسيب ورايا حاجة حلوة عشان الناس يترحموا عليا ويفتكروني بالخير.. أنا مش متعلمة زيك وقارية كتب.. وما أعرفش أقول كلام مترتب ومتزوق.. لكن والله العظيم أنا قلبي أبيض زي الفل.. ياما شفت ناس من برا الله الله.. ومن جوا يعلم الله.. ربنا أمر بالستر.. أهم حاجة اتعلمتها في دنيتي إني ما أحكمش على حد بالظاهر والمظاهر..

تصدق بالله؟.. قول لا إله إلا الله.. أنا اتجوزت الحاج صلاح عرام سنة ونص.. كان عنده ملايين بالكوم.. ويتكلم بالقرآن والسنة.. قال الله وقال الرسول.. ودقنه قدامه شبرين.. جواز على سنة الله ورسوله.. لكن في السر.. شفته مرة بيضرب السواق بالقلم والشلوت عشان اتأخر عليه نص ساعة بسبب الزحمة.. الراجل كان عجوز عنده ييجي سبعين سنة وشفت الدموع في عينيه زي العيال.. الحاج صلاح الله يرحمه كان بيدفع فلوس زي الرز للإخوان.. وعامل شهريات بالألوف لناس في الشرطة والصحافة.. ولما الأسطى مرعي الغلبان طلب ميتين جنيه سلفة عشان مراته عيانة.. سمعته بيديله دروس في الرضا والزهد.. الراجل مراته ماتت بعديها بأسبوعين.. كان عندها سرطان.. بعيد عنك.. عمرها كده.. لكن الميتين جنيه دول كانوا عند الحاج أقل من نفس في السيجارة اللي انت بتشربها دي.. على فكرة يا مختار يا حبيبي.. مش قلتلك تبطل السجاير المصري اللي تقصر العمر.. اضحك يا شيخ وما تكشرش كده.. أنا بأهزر معاك..

كنا بنقول ايه؟.. أيوه افتكرت.. اوعى تحكم بالظاهر.. ياما تحت السواهي دواهي.. عايز تعمل فصل عن اللي طلعت بيه من الدنيا.. حكم ومواعظ يعني؟.. شوف يا سيدي.. ها أقولك تلات حاجات اللي يعرف يعملهم يبقى سلطان زمانه وسيد الناس.. أول حاجة الرضا باللي قسمه ربنا وأراده.. رضا بجد مش كده وكده.. تاني حاجة تنضيف القلب من الكره والحسد والغل.. تالت حاجة إنك ما تحكمش بالمظاهر.. البني آدم لغز وفزورة.. ممكن

تعاشره عشرين سنة وما تعرفوش.. أجدع واحد هايعيش كام سنة؟.. سبعين تمانين تسعين؟.. وآخرتها ايه يعني؟.. متر في متر.. والكفن مالوش جيوب.. ما فيش تربة خمس نجوم.. تعرف أكبر نعمة في الدنيا ايه يا مختار؟.. راحة البال.. عارف يعني ايه راحة البال؟.. يعني تحط راسك على المخدة في الليل تنام على طول.. ارمي ورا ضهرك يا حبيبي.. هي دي خلاصة الحكاية.. راحة البال.. لا الحزن بيعيش على طول.. ولا الفرحة بتدوم.. خليها على الله.. تعالى بقى لما أوريك ألبوم الصور بتاعي.. فيه صورة وأنا عندي شهرين تلاتة.. وفيه صور وأنا بأرقص عريانة.. وكمان فيه صور عند الكعبة.. هي الدنيا كده.. من ده وده.. خلص الكاس اللي في ايدك ونطلع أفرجك.. هانقلب في الصور واحنا بنسمع أحلى أغنية للست أم كلثوم.. رباعيات الخيام.. هي اللي فيها الخلاصة يا حبيبي.. اسمع واتمعن..

إن لم أكن أخلصت في طاعتك.. فإنني أطمع في رحمتك.. أيوه والله يا ست.. رحمة ربنا واسعة.. خلص كاسك على مهلك.. الدنيا مش هاتطير..

الفصل الثالث: فلسفة الحياة

لكل إنسان فلسفة يستخلصها مع اقتراب نهاية رحلته في الدنيا، والفلسفة التي أعنيها هنا لا ينصرف معناها إلى المفهوم الشائع عن الكلمة التي تبدو ثقيلة الظل عند الكثيرين ممن يضيقون بالمصطلحات المعقدة، التي تقترن عادة بالغموض. الأمر في حقيقته أبسط من ذلك، ووليد تراكم الخبرات والتجارب بعيدًا عن القراءة والثقافة والأطر النظرية المنفرة. من العبارات التي تتردد كثيرًا في الحياة اليومية: "بلاش فلسفة"، فهل يدرك قائلو هذه العبارة الساخرة أنهم بالضرورة يملكون فلسفة ما، يتحركون في إطارها دون وعي أو عمدية؟!.

على الصعيد الشخصي، أقول دائمًا لنفسي وللآخرين: لست ملاكًا أو شيطانًا، ولا يوجد إنسان واحد في هذا العالم ينتمي إلى قبائل الملائكة أو كتائب الشياطين. في أعماق كل إنسان سوي، خليط معقد من الخير والشر، الحب والكراهية، التفاؤل والتشاؤم، الأمل واليأس، الفرحة والحزن، الأحلام والكوابيس. عندما أستعرض صفحات حياتي، أجد فيها هذا كله، ومع اقتراب إسدال الستار يزداد يقيني بأن الوصول إلى جوهر الحكمة لا يتحقق إلا بعد فوات الأوان.

القراءة عادة يومية في حياتي منذ عشرات السنين، ولاشك أن كثيرًا من أفكاري ورؤاي، التي تشكل محاور فلسفتي، مستمدة من الكتب وأطروحات

الأدباء والمفكرين والمؤرخين، لكن الخبرات والتجارب الشخصية تلعب دورًا محوريًا لا يقل أهمية. كل إنسان عرفته بمثابة الكتاب الذي يضيف، وقد يكون الإنسان- الكتاب سيئًا أو جيدًا، لكن الإضافة مؤكدة بالسلب والإيجاب معًا. المؤلفون في مختلف المعارف يكتبون من وحي تجاربهم، والذين لا يجيدون القراءة، أو ينصرفون عن القراءة، يتورطون في فعل المعرفة من خلال البشر: الأهل والأصدقاء والجيران، الطبيب والمحامي ورفيق السفر. هؤلاء جمعيًا، وغيرهم من العابرين، ليسوا إلا كتبًا تسير في دروب الحياة.

لا أزعم امتلاك اليقين المطلق والحقيقة النهائية الحاسمة، ولا شيء أقوله عن نفسي إلا أنني مواطنة مصرية عادية، اسمها ليلى رمزي حشمت، اجتهدت لتقدم فنًا يسعد الناس، وتمتعت بكثير من النعم، وحُرمت أيضًا من الكثير. أكرمني الله بالمال والصحة والشهرة وحب الناس، ولم أحظ في المقابل بنعمة الأمومة والاستقرار الزوجي والاستمتاع بدفء الأسرة. المعادلة متوازنة، فلا أحد من أبناء آدم يملك كل شيء، والأرصدة متقاربة في التقييم الأخير.

المحور الأول في فلسفتي هو الإعلاء من شأن الرضا، فهو عندي الطموح الأعظم والهدف الأسمى الذي يسعى إليه الإنسان. لا يقترن الرضا بالثراء والصحة والنفوذ والمكانة الاجتماعية، فما أكثر الذين يملكون هذا كله ويسكنهم السخط وتعشش التعاسة في أرواحهم. مفهومي للرضا يتجاوز غياب الألم والحرمان والفقدان، ذلك أنه يتمثل في القدرة على التعايش والإصرار

على معانقة السلام الروحي، تلك النعمة التي لا يظفر بها إلا أصحاب القلوب النقية الذين لا يعرفون الكراهية والحقد.

في حياتي نجاحات كثيرة أحمد الله عليها، وهي لا تخلو أيضًا من الخيبة والفشل، لكنني أدرك الآن أن المشهد لا يكتمل إلا باجتماع اللونين الأبيض والأسود، فالحياة خليط من هذا وذاك، والسعيد السعيد من يتسلح بالقدرة على الاستيعاب والفهم والتعايش بلا مرارة. بكل يقين وصدق، أقول إن الرضا هو الثروة الأعظم التي أعتز بها، وأجمل ثمرات الرضا غياب الشعور المدمر بالندم. أؤمن بالحكمة العربية القديمة: العجز عجزان، التقصير في طلب الشيء وقد أمكن، والجد في طلبه وقد فات. نعم، هذه هي القضية في إيجاز. لا نملك آلة الزمن لنعود إلى الماضي ونصحح مساره، ولا نستطيع أن نقفز إلى المستقبل ونرى ما فيه. البطولة للرضا بالمتاح، والاجتهاد في فهم أبعاده. لا يعني هذا كسلاً أو امتناعًا عن الطموح، لكنه يقود إلى العمل بجدية لتنقية القلب والروح من عكارات التطلع إلى اقتناء كل شيء على أشلاء الهدوء النفسي.

الرضا الحقيقي يقود إلى ما أسميه بالزهد الإيجابي، حيث التعالي على الشكليات التافهة التي يتوهم الكثيرون أنها ضروريات لا غنى عنها. لقد أتاحت لي الحياة أن أسكن قصورًا، وأتحرك في سيارات فارهة، وأرتدي ثيابًا باهظة الثمن، وأتزين بمجوهرات تخطف الأبصار. لن أتحدث بالطبع عن الطعام والشراب، لكنني أؤكد أن هذه الأشياء المادية جميعًا لا تصنع

السعادة، وقد عرفت في حياتي فقراء بسطاء أكثر توافقًا من أصحاب الملايين والمليارات. من هؤلاء سائق نوبي كان يعمل في خدمة أحد أزواجي، وهو عجوز في السبعين وربما أكثر، تعاني زوجه من مرض خبيث لا يُرجى شفاؤه، ويتعذب أبناؤه بالفقر ومحدودية الموارد. كان متواضع الثياب، نحيل الجسد، يسير في بطء وتثاقل لفرط التعب، لكن الابتسامة المشرقة لا تغادر وجهه، ويشع منه نور لا يظهر مثله عند زوجي الذي يملك الملايين، ويقتني القصور والشركات، ويضن عليه القدر بابتسامة صافية.

أرجو ألا يتبادر إلى الأذهان أنني امرأة ثرية تمدح الفقر وتشيد بالفقراء من منطلق الشفقة، فلا شيء من هذا على الإطلاق، ولست ممن يجدون في حياة الترف عيبًا، أو يزينون للفقراء فقرهم. المسألة ليست على هذا النحو، وغاية ما أهدف إليه هو التأكيد على أن السعادة هي المطلب الأعظم للإنسان، لكن السؤال الذي لا يمكن حسم إجابته: ما السعادة؟.

عندما أستمع إلى إسماعيل ياسين في مونولوجه الشهير عن السعادة، أقول إنه يعبر بطريقته البسيطة العميقة عن الحيرة التي لا تنتهي، ويصل بي الاستماع والاستمتاع إلى المحور الثالث في منظومة فلسفة الحياة، وأعني بذلك تجنب الاندفاع في إصدار الأحكام عبر الظاهر الشكلي الذي قد يكون مخادعًا مضللاً. الأشعث الأغبر قد يكون الأقرب إلى الله كما يقول الحديث القدسي، وما أكثر الفقراء الذين يتسلحون بالكرامة والتعفف فيبدو للناس أنهم أغنياء لا يحتاجون أحدًا أو شيئًا. لقد عرفت في حياتي من يلبسون ثياب

الصداقة والمودة وهم يضمرون العداء والكراهية والحقد، وصادفت أيضًا خصومًا متحضرين يستحقون الاحترام والإجلال، وأستطيع أن أكتب عشرات الصفحات عن الذين ينم ظاهرهم عن التدين والورع والتقوى، وهم في أعماقهم أوغاد بلا خلق أو دين.

أؤمن بصحة المثل الشعبي الحكيم العميق: "من برا الله الله.. ومن جوا يعلم الله"، فليس مثل هذه الكلمات البسيطة في تجسيد المعنى الذي أقصده، حيث الازدواجية المدمرة التي تتحول معها الحياة إلى غابة يسكنها الوحوش.

إنني راضية عن نفسي بشكل عام، ولا أزعم الكمال الذي لا يمكن أن يُتاح لبشر. في حياتي شوائب وعكارات لا أنكرها، وفيها اخطاء فادحة جسيمة، لكنني أعتز كثيرًا بسجلي الذي يخلو بفضل الله من داء الكراهية، ولا متسع فيه لإلحاق الأذى. أقول لنفسي كثير: لا صفحات سوداء في سيرتي، ونواياي طيبة دائمًا. اجتهدت فأصبت وأخطأت، وتبقى ثقتي في مغفرة الله ورحمته بلا حدود.

يتسع وقتي في السنوات الأخيرة للتأمل وتقييم فصول حياتي، وكثيرًا ما أجلس في مكتبتي لأقلب صفحات الألبومات الكثيرة التي تضم مئات الصور، مذ كنت رضيعة في شهورها الأولى، حتى اللقطات الأخيرة في الاحتفال بعيد ميلادي قبل شهور، وسط الأصدقاء والصديقات. أراني طفلة مع أبي وأمي وأخي، رحمهم الله جميعًا، في شقة الدقي، وأقفز مع التذكارات إلى فيلا المعادي

وصورتي على الأرجوحة في الحديقة الصغيرة الأنيقة، وأكر صورًا أخرى فأراني أرقص وأبث البهجة، وأمثل في أفلام متفاوتة الحظوظ من النجاح، وأتزوج فلا أظفر بما أنشده من الاستقرار، ثم أجد صوري بملابس الإحرام في الأراضي المقدسة، فأحمد الله على نعمة الإيمان.

كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون. ما أكثر أخطائي وخطاياي التي تستدعي التوبة ودموع الندم، لكنني أزعم أن احترافي للفن ليس خطأ أو خطيئة، وأن اعتزالي لا يعبر عن رغبة في التكفير. كل صاحب مهنة يتقاعد في نهاية المطاف، ويحق له أن يراود الراحة والسكينة، لكن هذا لا يعني السقوط في براثن الخطيئة التي تقترن بالعمل. أقول لنفسي، ولمن ينشغل بقضية العلاقة بين الفن والالتزام الديني والأخلاقي: إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى.

أحببت وتزوجت، قرأت واستمعت وشاهدت واكتسبت خبرات في السياسة والحياة الاجتماعية. كنت هدفًا لحملات إعلامية ظالمة متحاملة، وعرفت عشرات كان لهم في حياتي بصمات لا تُنسى، سلبًا وإيجابًا، ثم انتهى بي الأمر إلى الاعتزال والوحدة ذات الإيقاع الهادئ. لا أخفي شيئًا في مذكراتي، فلا شيء أخجل منه، ولا أتجمل أو أضع المساحيق، والله وحده أسأل أن تكون نهايتي بلا ألم أو وجع.

ونعم الفلسفة يا مختار.. طب والله العظيم انت حطيت ايدك ع الخلاصة ولمسّت صح.. كأنك عايش جوايا وحاسس باللي فيا.. هي الدنيا ايه يعني؟.. ولا حاجة.. تتعشى كباب وكفته.. تتعشى فول وطعمية.. المهم تشبع وتحبس بكوباية شاي وتتكرع وتحمد ربنا.. كده رضا.. تلبس حرير ولا تلبس خيش.. المهم تتستر وتنام خالي البال.. المظاهر دي زفة كدابة.. وفي القعدة بتاع الليلادي هاتسمع مني العجب.. أنا مش متخيلة هاتكتب الفصل بتاع الحب والجواز ازاي؟.. الموضوع حساس.. ربنا يعينك.. أنا اللي عليا إني أقولك كل حاجة بصراحة.. والباقي عليك..

نبتدي منين يا سيدي؟.. من محمود ابن الجيران.. أول واحد قالي بحبك يا ليلى.. كنت أيامها في مدرسة التجارة.. آخر سنة.. وهو في كلية الهندسة.. أبوه موظف صغير زي أبويا.. وليه اتنين اخوات أكبر منه.. واحد ميكانيكي.. صبي ميكانيكي يعني.. والتاني شغال في مطعم كشري في شارع بورسعيد.. محمود هو اللي فلح في إخواته.. والحارة مالهاش سيرة غير المهندس راح والمهندس جه.. الكلام ده فات عليه أكتر من خمسة وأربعين سنة.. ما أقدرش أقول إني كنت بأحبه.. بس أكيد كنت فرحانه إنه بيحبني.. كل يوم خميس يستناني قدام المدرسة.. نتمشى شوية.. ويحكي في ألف موضوع.. ومرتين تلاتة دخلنا سينما من تلاتة لستة.. وأقولهم في البيت باخد مجموعة تقوية..

المهم يا سيدي.. الدنيا ضيقة.. يظهر حد من الحارة شافنا وراح قال لأمه.. فضحت الدنيا وعملتها حكاية.. أصلها كانت شرشوحة بقى الله يرحمها..

والله ما عارفة ماتت ولا لسه.. أكيد ماتت. دي أكبر من أمي.. الرحمة تجوز ع الحي والميت.. المهم.. أبو محمود ما حبش يوسع الموضوع.. وهو راجل غلبان مش زي مراته المفترية.. عزل من الحارة وراح ساكن في الناصرية.. ومن يومها لا شفت محمود ولا أعرف أخباره.. وبعد ما خدت الدبلوم واشتغلت نسيت كل حاجة..

الشوية اللي اشتغلتهم في وزارة الصحة كنت باتعاكس ياما.. معاكسة زمان بقى.. يا قمر.. يا جميل.. ايه الحلاوة دي.. طبعًا مافيش حد ناوي على جواز.. أول بختي كان مع رياض.. هو اللي دخلني سكة الرقص والسينما.. كان عنده أكتر من خمسين سنة.. وأنا ما كملتش واحد وعشرين.. جه لأبويا في العيد بتاع رمضان وطلب يتجوزني.. الكلام ده سنة اتنين وسبعين..

أمي قالت إنه كبير وما ينفعش.. لكن أبويا وافق على طول.. كانوا ضاربين صحبية وبيسكروا مع بعض كل ليلة.. أكيد أبويا قال لنفسه إنه راجل كبير وهايدلعني ويحط عينه عليا في الشغل الخطر بتاع الهرم والسكرانين.. وطبعًا مش هايكلفه ولا مليم.. عشت مع رياض سنة ونص.. اتطلقنا سنة أربعة وسبعين.. بعد أبويا ما مات بشهرين تلاتة.. تعرف يا أستاذ مختار.. الجوازة كانت بالخسارة.. كان بياخد فلوسي ويلعب بها قمار.. ويسكر ويحشش.. كان فاهم إن الحشيش بينفع.. بيني وبينك هو مخلص وجايب جاز.. حاسس إنه مش مشبعني ولا مالي عيني.. قلبت معاه بغيرة واتعلم يشتم.. ولما طول ايده عليا صممت أطلق.. رياض عاند وركب دماغه..

يبقى أنا غلطانة بقى إني اشتكيت لعبد الفتاح بيه؟.. عبدالفتاح بيه مين؟.. صاحب الكازينو اللي كنت بأشتغل فيه.. في سن رياض صحيح.. بس صحة ومنظر وفلوس.. عينه كانت عليا من يوم ما اشتغلت عنده.. ما أعرفش عمل ايه بالظبط.. لكن تاني يوم اشتكيت لقيت رياض بقى قط بعد ما كان عامل أسد.. لما استوفيت شهور العدة.. اتجوزت عبدالفتاح.. كان صريح معايا من أول يوم.. قال إنه بتاع نسوان وما يملاش دماغه صنف واحد.. كان فحل الله يرحمه.. هو اللي كبرني في الكار وخلاني رقاصة بريمو.. عشت معه سنتين ونص حلوين.. بس راح في شربة ميه يا ولداه.. أيام الهوجة بتاعة سبعة وسبعين.. اتحرق الكازينو واتحرقت تحويشة العمر اللي كان شايلها في المكتب.. المرحوم كان بيخاف من البنوك ويحب الفلوس تبقى في حضنه.. مات بالحسرة.. ما طلعتش منه بحاجة..

بعد الدنيا ما هديت واتلمت رجعت أشتغل تاني.. على آخر السنة اتجوزت فتحي عبدالمطلب.. كان عضو مجلس شعب وابن حظ.. شغال في الاستيراد والتصدير.. وعنده شركة كبيرة في نص البلد.. أول مرة أسافر أوروبا كان معاه.. ما حرمنيش من حاجة.. سنه كبير وبيحب الدنيا.. متجوز خمسة ستة قبلي.. وعنده عيال أكبر مني.. زي ما دخلنا بالمعروف خرجنا بالمعروف.. الكلام ده بعد السادات ما اتقتل بشهرين.. لقيته في يوم داخل عليا.. قال إنه عاش معايا أيام حلوة مش ممكن ينساها.. لكن النصيب خلص لحد كده.. ليه يا فتحي؟.. جرى ايه يا فتحي؟.. ما ردش.. تاني يوم بعتلي ورقتي.. وعطاني مبلغ

محترم.. عرفت بعد كده إنه اتعلق بواحدة تانية.. تلميذة صغيرة في الجامعة.. الله يرحمه بقى.. هي اللي جابت أجله.. اتجوزها ومات طوالي.. أعمار يا مختار يا حبيبي.. لكن ربك بيسبب الأسباب.. أنا أيامها كان عندي تلاتين سنة ومعايا فلوس كتير.. واسمي زي الطبل..

بعد التلات جوازات دول نفسي وقفت من الجواز.. ولما عرفت الشيخ عبدالله.. كان ممكن أمشي معاه شوية من غير جواز.. هو راجل غني قوي من البحرين.. فضل شهر ييجي الكازينو كل ليلة ويصرف بالهبل.. لما عرض عليا الجواز ما كنتش متحمسة قوي.. هو اللي أصر وقال بصراحة إنه ما بيحبش الحرام.. كلمني كتير عن حاجة اسمها جواز المتعة وما فهمتش حاجة.. من كلامه عرفت إنه شيعي.. بس أنا مش فاهمة ايه الفرق بين السنة والشيعة.. وما حاولتش أفهم.. كان راجل طيب قوي.. حنين وكريم.. وحافظ شعر وكلامه كله حكم.. قبل ما يسافر ويرجع بلده عطاني شنطة كبيرة فيها ربع مليون جنيه.. المبلغ ده أيامها كان ثروة.. ممكن تشتري بيه عمارة كبيرة.. دلوقتي ما يجبش شقة في أي حي شعبي.. المبلغ ده مع اللي معايا من الأول من فلوس الشغل كان كفاية قوي عشان أحس بالأمان.. لزومهم ايه يعني الرجالة؟.. عشت كام سنة من غير جواز.. بس مش من غير رجالة.. فاهمني ازاي يا مختار؟.. كلك مفهومية يا حبيبي..

المهم.. فضلت على الحال ده لغاية آخر سنة خمسة وتمانين.. الحاج صلاح عرام.. طبعًا تعرفه؟.. أيوه هو.. بتاع توظيف الأموال.. ما عرفتوش في

الكبارية.. لا.. شاف صورتي في مجلة ولا جرنان.. وعجبته.. بعتلي السكرتير بتاعه.. شاب طويل رفيع وأهبل كده اسمه نبيل.. مربي دقنه ولابس بنطلون غريب فوق الكعب وشكله يضحك.. كان باصص في الأرض على طول كأنه عامل عملة.. قال إن الحاج عايزني.. استغربت.. هي أفراح الناس دي فيها رقص ومغنى.. نبيل فهمني إن ما فيش فرح ولا عيد ميلاد.. الحاج عايزني في موضوع شخصي.. عطاني الكارت اللي فيه العنوان وطلب مني آجي محتشمة شوية.. ما فهمتش.. ولا يمكن عملت نفسي مشي فاهمة..

رحتله على سنجة عشرة.. بارفان ومكياج ولبس قصير محزق.. كان مكتبه في الدقي.. فيلا حلوة قوي.. نص ساعة واتفقنا على كل حاجة.. جواز شرعي على سنة الله ورسوله.. بس في السر.. كان مصمم إني أبطل شغل وأنا رفضت.. قلت له لما الجواز سكيتي أبطل ليه؟.. نص مليون مقدم ومهر.. شبكة بمية وخمسية ألف.. مصروف شهري خمسين ألف.. المؤخر مليون.. اضرب الأرقام دي في مية تعرف بكام النهارده.. كان عنده خمسين سنة.. لكن زي التور.. لا مؤاخذة يا مختار.. قصدي صحته زي الحديد.. وعلى السرير عينك ما تشوف إلا النور.. في الحتة دي كان أجدع واحد من اللي اتجوزتهم وعرفتهم.. ما يبطلش حشيش ويقول إنه حلال.. كان هايجر رجلي معاه.. الحمد لله ما حبتش المزاج ده.. سنة حلوة وكلها خير.. كان كويس قوي معايا وزبالة مع كل الناس.. طماع وخبيث ولسانه طويل.. ايده كمان طويلة.. مرة لطش سكرتيره نبيل بالقلم كفاه على وشه.. بيني وبينك فرحت.. لكن لما ضرب الأسطى مرعي

العجوز الطيب.. كرهته قوي.. ايه الافترا ده؟.. مش ها أكذب عليك.. السنة اللي عشتها معاه طلعت منها بخمسة ستة مليون جنيه.. من فلوس الناس.. واتعلمت درس مهم عمري ما ها أنساه.. مش كل اللي عامل شيخ يبقى شيخ.. الحاج صلاح خرب بيوت كتير.. اللي مات واللي اتشل واللي واللي.. بذمتك مين أقرب لربنا؟.. أنا ولا هو؟.. الحكاية خلصت بالطلاق.. والفلوس اللي عندي خلتني حاسة إني مستغنية..

وبعد سنة كانت أطول جوازه في حياتي.. المخرج جمال أنور.. عارفه؟.. بتهز دماغك ليه.. دا كان مخرج جامد قوي.. يقلب الفيلم في شهر.. شهر ونص بالكتير.. فضلنا متجوزين لآخر سنة تلاتة وتسعين.. وعملنا مع بعض عشرة اتناشر فيلم.. عشان أخلص ضميري.. لازم أقولك إنه كان مكبر دماغه ع الآخر.. يعني يعرف إني سافرت إسكندرية مع البطل اللي بيمثل قدامي بعد الفيلم ما يخلص.. وأقعد معاه أسبوع في العجمي.. يكلمني عنده في التليفون عادي.. ما يقولش حاجة.. تقولش إني ضيفة على أخويا؟.. هو كان على قده في النسوان.. والجوازة كانت مصلحة.. عمل من ورايا قرشين كويسين قوي.. وأنا حاولت أبقى ممثلة مشهورة وربنا ما أرادش.. لما عرف إني ماشية مع الكابتن هاني عبداللطيف.. لعيب الكورة المشهورة.. ما قالش حاجة.. ولما جبت سيرته مرة قدامه.. قال إنه صغير عليا.. يومها هجت عليه وشتمته وطلبت الطلاق.. الراجل الناقص بيعايرني بسني.. مش في دماغه إني ماشية مع هاني.. بالعند فيه صممت إني أتجوز هاني..

أنا كنت أكبر منه بخمستاشر سنة.. وكان مشهور قوي.. لما طلبت منه الجواز وافق.. بس هو أول واحد ياخد وما يديش.. جبت له عربية وشقة باسمه.. بس للأمانة هو برضه دفع مستقبله في الكورة.. اتهد حيلة وبطل بدري.. اللي ييجي ع الولايا ما يسلمش يا مختار.. والله ما عارفة هو فين دلوقتي.. سمعت إنه بيشتغل مدرب وبيحلل في التليفزيون.. الله يسامحه ويديله على قد نيته.. الحظ رماني بعده على محامي مشهور من اللي بيلعبوا بالبيضة والحجر.. سعيد أبو السعد.. أكبر مني بكام سنة.. وجوازتنا كانت غريبة قوي.. شفته في عيد ميلاد واحدة صاحبتي.. كان سكران طينة وأنا سكرانة أكتر منه.. رقصت يومها بمزاج.. ولقيته بيقولي.. تتجوزيني يا ست الكل.. قمت رديت عليه.. وماله يا نور عيني.. روحت ونسيت كل حاجة.. تاني يوم لقيته بيكلمني في التليفون.. ما أعرفش جاب النمرة منين.. قالي وعد الحر دين عليه.. قلتله انت مين؟ قال أنا سعيد يا ست الكل.. خطيبك.. ضحكت وقابلته بالليل.. كان دمه خفيف يضحك الحجر.. اتجوزته.. يجيني يوم الخميس بعد الضهر.. يبات معايا ليلة الجمعة وليلة السبت.. يمشي الصبح وما أشوفوش إلا يوم الخميس.. كل واحد في حاله طول الأسبوع.. حدوتة حلوة قعدت سنتين.. ربنا يفك سجنه عن قريب.. نصب على واحد تقيل مسنود.. ما حسهاش صح.. لبسوه قضية مخدرات من اللي بخمسة وعشرين سنة.. اتطلقنا بعد الحكم.. ووصيت عليه.. العشرة ما تهونش إلا على ولاد الحرام.. فيه جوازة بعد كده ها أقولك عليها بس خللي بالك وانت بتكتب.. ويا ريت بلاش تجيب سيرتها.. المهندس مكرم جورج.. مسيحي طبعا.. لو عديت أغني عشرة في مصر لازم

يكون منهم.. مليارات عقبال عندك.. أنا مش متعصبة طبعًا ولا حاجة.. بس انت عارف الدين غالي.. ما طالش مني حاجة غير كام بوسة ع الماشي.. لما كلمني عن الجواز اتخضيت.. هو الراجل اتجنن ولا ايه؟.. بس هو حلها.. كان عنده جنسية إنجليزية.. سافرنا لندن واتجوزنا هناك.. حاجة اسمها جواز مدني.. بيني وبينك ما كنتش فاهمة حاجة.. بس وافقت.. كام شهر بكام مليون.. رحت معاه أمريكا وفرنسا والسويد واليابان.. حسيت إني بالنسبة له حاجة حلوة نفسه فيها ولازم يقنيها.. هو كان مسيحي بس مالوش في الدين.. لسه بيكلمني في التليفون مرتين تلاتة كل شهر.. راجل جدع ابن بلد.. لما سبته بدأت أزهد في الجواز.. يمكن عشان سني؟.. يمكن لأن ما عدش فيه راجل يملا عيني؟.. مش عارفة يا مختار.. لكن المقدر المكتوب لازم يكون..

فاكر صفوت شريف؟.. أيوه هو.. شاب زي القمر.. اشتهر بسرعة.. تمثيل وغنا.. دخل دماغي واتجوزته.. أنا اللي طلبته للجواز.. كان أصغر مني بكتير.. المشكلة كانت في المخدرات.. ولما دخل في سكة الهيروين ضاع.. مش عشان الفلوس.. لا.. خير ربنا كتير.. صحته.. شمة جامدة موتته.. لقوه في الشارع.. عملت نفسي من بنها.. زعلت عليه صحيح.. لكن يا روح ما بعدك روح.. هي دي ميزة العرفي.. زي السكن بالإيجار الجديد أسهل حاجة إنك تعزل..

لما صفوت مات كنت عديت الخمسين.. اتجوزت مذيع في التليفزيون اسمه خالد وما عمرتش معاه.. وبعديه عرفت على شافعي.. عنده قرى سياحية كتير.. عشت معاه سنة هادية وحلوة.. جنب البحر والروقان.. لكن عينه كانت

زايغة.. ويموت في البنات الروس والأوكرانيات. سبته وحلفت إني أبطل جواز.. عملت عمرة وبدأت أفكر إني أستريح.. حسيت بالتعب.. كفاية كده.. آخر بختي كان مع عيل في سن ولادي.. لو كان عندي ولاد يعني.. اسمه تامر بهجت.. عنده اتنين وعشرين سنة.. وأنا ستة وخمسين.. شهر والتاني لقيت نفسي مش طايقاه.. الواد عامل زي الفراخ البيضا اللي ما ترمش العضم.. عطيته قرشين وعطاني الورقة العرفي.. كان بيعيط زي العيال.. دنيا يا مختار يا حبيبي.. أول بختي رياض كان أكبر مني باتنين وتلاتين سنة.. والواد تامر آخر بختي أصغر مني بأربعة وتلاتين سنة..

سبحان الله.. كاس ودايرر.. يوم ليك ويوم عليك.. تلاتاشر جوازة كتير؟.. ليه بقى.. اشمعنى صباح وتحية كاريوكا؟.. على فكرة يا مختار.. خللي بالك.. الجواز الكتير شهادة ليا مش عليا.. اسمه حلال وعلى عينك يا تاجر.. صحيح أنا مشيت مع كام واحد في الحرام.. لكن دي نزوات ربنا بيغفرها.. مش كده يا مختار؟.. ركز كده يا خويا وانت بتكتب.. مش عايزة فضايح.. لخص كده وانت عارف ايه اللي يتقال.. ما انت سيد العارفين.. روح يا شيخ الله يكرمك ويستر عليك.. قول آمين..

الفصل الرابع: حب وزواج

الحب هبة إلهية وغريزة إنسانية، أما الزواج فهو فعل علني شرعي مشروع، ليس فيه ما يدعو إلى الخجل والإنكار. إنه أمر شخصي لا يحق للآخرين أن يتطفلوا عليه، لكنني أقر بأن الشخصيات العامة الشهيرة لا تتمتع بالخصوصية التي يحظى بها العاديون من الناس.

ليس في تعدد زيجاتي ما يشين، فأنا امرأة محترمة شريفة تتحرك في وضح النهار، ولا ترضى بالعلاقات المريبة خارج نطاق الشرعية الدينية والأعراف الاجتماعية والالتزام الأخلاقي. لا ألتفت إلى من يعيبون عليّ تعدد مرات زواجي، بل إنني اشفق عليهم وأدعو لهم بالهداية والاقتراب من النضج العقلي، والمثير للدهشة أنهم لا يتوقفون كثيرًا أمام فنانات مرموقات مثل صباح وتحية كاريوكا، ولا يتحدثون عن المطرب القديم الشهير فايد محمد فايد، الذي تزوج أكثر من ثلاثين امرأة!.

أعود لأقول إن الزواج شأن شخصي خالص، لا يحق لأحد أن يخوض فيه، وليس في تكرار التجربة ما يدين المرء أو ينتقص من شأنه، لكن عدد الزيجات المنسوب إليّ يتسم بالمبالغة غير المنطقية. قرأت في إحدى المجلات الفنية أنني تزوجت عشرين رجلاً، ونشرت صحيفة عربية تقريرًا مطولاً أكدت فيه أن عدد أزواجي يقترب من الثلاثين!. ما أفزعني بحق هو الإشارة الكاذبة إلى أنني تزوجت عرفيًا أكثر من مرة، وهذا غير صحيح على الإطلاق. الزواج عندي

مؤسسة محترمة وشركة يتطلع طرفاها إلى الاستقرار والنجاح، وكلمة "عرفي" هذه تقترن بالمشروع المؤقت الهش الذي لا يمكن أن يستمر.

في التقرير الذي نشرته الصحيفة العربية واسعة الانتشار، وأفردت له صفحة كاملة مليئة بالصور، طالعت بعض الأسماء التي لم أعرفها يومًا، ومنهم الشيخ صلاح عرام، صاحب الشهرة السلبية المدوية في ساحة توظيف الأموال، وهو رجل كنت أسمع اسمه في منتصف الثمانينيات، ولم ألتق به مرة واحدة في حياتي. أعرف أنه تزوج من بعض الممثلات والراقصات، لكنني لست منهن، وأتساءل هنا: إذا كان ما يُقال عن زواجنا صحيحًا، فكيف يقبل الداعية الإسلامية ذائع الصيت أن تعمل زوجه راقصة؟. راجعوا تاريخي وأرشيف الصحف، وستجدون بلا عناء انني لم أتوقف يومًا عن الرقص خلال الفترة التاريخية التي يُقال إنني تزوجته فيها.

من الأسماء الغريبة التي ترد في التقرير، لاعب كرة القدم هاني عبداللطيف. كان المرحوم أبي أهلاويًا، وكذلك أخي الشهيد أنور، لكنني لم أهتم يومًا بالكرة ولم أشاهد مباراة واحدة في حياتي، وليس لي أصدقاء من الوسط الرياضي بشكل عام. أين وكيف عرفت هذا اللاعب لأتزوجه؟، وأين وكيف عرفت المحامي الشهير الأستاذ سعيد أبو السعد؟!. ليس في حياتي من المحامين إلا العالم الجليل الفاضل الأستاذ عبدالرحيم محسن، وهو رجل تقي ورع أعتز كثيرًا بصداقته منذ أكثر من ربع قرن، ويتولى كل أموري القانونية، العقود والبيع والشراء، وأثق فيه بلا حدود.

المثير للدهشة والاستياء معًا هو ما يُقال عن زواجي من الفنان الشاب المرحوم صفوت شريف، المطرب الممثل الموهوب الذي اختطفه الموت مبكرًا في ظروف غامضة. التقيت به مرات قليلة في مناسبات عامة، ولم أكن أخفي إعجابي بإبداعه المتميز الذي يبشر بالخير، وكان بدوره من أشد المفتونين بي. الحديث عن زواجنا ليس منطقيًا، فهو في عمر أبنائي لو كان لي أبناء، والذي أعرفه يقينًا أنه عاش قصة حب ملتهبة مع إحدى الزميلات، وهي راقصة وممثلة شهيرة، لكن فصول القصة لم تكتمل بفعل الموت الذي أثار طوفانًا من الأحزان في قلوب كل عارفيه.

الأغرب على الإطلاق، في التقرير المشبوه للصحيفة، تأكيده على زواجي من رجل الأعمال الملياردير مكرم جورج. لست متعصبة بطبيعة الحال، ولي أصدقاء من المسيحيين، لكن زواج المسلمة من مسيحي ليس واردًا لأسباب دينية واجتماعية لا تغيب عن أحد. لا يعني هذا أنني أجهل شخصية المهندس مكرم، فهو صديق عزيز ذو ولع بالفن ومثقف من طراز فريد، لكن الزواج شيء آخر وشأن مختلف تمامًا.

أشرت من قبل إلى أن أول قصة حب في حياتي، أو أول مشروع قصة حب، كانت مع المرحوم شريف بهجت شريف، جارنا في المعادي، ولم يُقدر لهذه القصة المبكرة أن تكتمل، لتحفظ أمي من ناحية وبفعل الحادث المأسوي الذي أودى بحياة شريف من ناحية أخرى. الإنسان، أي وكل إنسان، رجلاً كان أم امرأة، قد لا يحب شخصًا بعينه، لكنه بالضرورة يحب فكرة الحب،

ويسعد بأن يكون محبوبًا وموضع اهتمام. هذه هي خلاصة علاقتي القصيرة جدًا مع شريف، وأزعم الآن أنني لم أكن أحبه، لكنني أحببت حبه لي.

من المنطقي أن أنتقل إلى الحديث عن أزواجي، مؤملة أن يكون التناول موضوعيًا قدر الإمكان، محترمًا عادلاً منصفًا ينجو من لعنة التحامل والنظرة الأحادية ضيقة الأفق. تزوجت خمس مرات: صاحب شركة الإنتاج الفني المرحوم رياض حمودة، الأستاذ عبد الفتاح وصفي صاحب الكازينو الذي التحقت للعمل به عدة سنوات في شارع الهرم، السياسي البارز والاقتصادي الكبير فتحي عبدالمطلب عضو مجلس الشعب، المخرج السينمائي المعروف جمال أنور، رجل الأعمال علي شافعي. ليس في حياتي من الأزواج إلا هؤلاء، والأسماء الأخرى المتداولة لا وجود لها إلا في خيالات من يخترعون الأكاذيب لملء صفحات الصحف.

المرحوم رياض حمودة أول أزواجي، وكان من الأصدقاء المقربين لأبي، وهو أبرز الذين دعموني نفسيًا بعد أن فقدت أخي وأمي وأبي في عام واحد، بكل ما يترتب على ذلك من اضطراب وارتباك وشعور بالخواء والضياع. يزيد فارق العمر بيننا على ثلث قرن، وإلى ما قبل زواجنا بقليل كنت أنادية بكلمة "عمي". لعب دورًا مهمًا في حياتي الفنية ومسيرتي الشخصية، وعندما أقول إن الزواج لم يكن متكافئًا، فإنني لا أسيء إليه أو أنتقص من شأنه. كنت في حقيقة الأمر مثل ابنته، وبعد فترة قصيرة من الزواج فوجئت بتصاعد غيرته إلى درجة الجنون، وعندئذ تحول التوتر بيننا إلى جزء من نسيج الحياة

اليومية، وأدركت كما أدرك هو أن الاستمرار على هذا النحو ليس ممكنًا. كان الطلاق هادئًا يخلو من التشنج وتبادل الإهانات، وإلى اليوم الأخير في حياته كان بمثابة الأب والصديق، أتواصل معه وأستشيره وأستأنس برأيه في كل ما يصادفني من مشاكل.

بعد شهور من الطلاق، بدأت في التخلص من آثار التجربة الأولى، الحافلة بالألم والمعاناة، ووجدت نفسي أقترب كثيرًا من عبدالفتاح وصفي، صاحب ومدير الكازينو الذي أعمل فيه. كانت علاقتنا تمتد إلى عدة سنوات في إطار العمل وحده، وعلى الرغم من أنه في مثل عمر رياض، فإنه أكثر حيوية وأقرب إلى الروح الشبابية. لم تغب عني نظراته الجديدة المختلفة بعد الطلاق، وما هي إلا شهور حتى تخلص من تردده وفاتحني برغبته في الزواج. لأنني كنت أعرف الكثير من علاقاته النسائية المتعددة المتنوعة، فقد صارحته بمخاوفي وأكدت له أنني لا أطيق فكرة الخيانة، لكنه أقسم لي في حرارة أنه يرغب بجدية مخلصة في الاستقرار والهدوء، ولن يجد افضل مني. عشت معه عامًا حافلاً بالسعادة الخالصة، وكم تمنيت أن أنجب منه لتدعيم حياتنا المشتركة، لكن القدر لم يمهلنا لتحقيق الحلم. في أحداث يناير ١٩٧٧، التي ترتبت على قرارات حكومة الرئيس السادات برفع الدعم عن بعض السلع الضرورية الحيوية،

تحول شارع الهرم إلى ساحة حرب، واعتدى المتظاهرون على الملاهي الليلية. احترق الكازينو الفاخر الذي يمثل كل ممتلكات عبدالفتاح، ولم يتحمل الصدمة المروعة فأصابته ذبحة صدرية، ومات بعد أيام.

كنت عند رحيل عبدالفتاح في الخامسة والعشرين من عمري، ونجاحي الفني يفوق كل ما كنت أتوقعه وأتخيله، لكن حياتي الشخصية لم تكن مشبعة. أقيم وحدي محاصرة بالوحدة القاتلة، ووفرة الصديقات والأصدقاء لا تعني الدفء والتحقق والاستمتاع. لم أكن أفكر في الحب والزواج مجددًا، وأنصح نفسي بالتأني والتريث حتى لا أتعرض لصدمة جديدة غير محتملة. عندما عرفت فتحي عبدالمطلب واقتربت منه، شعرت أنه الرجل الذي أنتظره وأريده. اندفعت في حبه والتعلق به، على الرغم من أنه في الخمسين من عمره وزوج وأب. كان عضوًا في مجلس الشعب عن إحدى الدوائر الشعبية في القاهرة، أما نشاطه الاقتصادي فيتمثل في امتلاك شركة عملاقة للاستيراد والتصدير. تجاوزنا كل المصاعب والعقبات بسحر الحب، وتزوجنا قرب نهاية العام ١٩٧٨. وافق بعد تردد قصير على استمراري في العمل الذي أعشقه، وسافرت معه في رحلات كثيرة لا تتبخر ذكرياتها الجميلة. لاشك أن السنوات الثلاث التي عشتها معه أقرب إلى الأحلام الوردية، لكنها لم تدم. لا أحمّله مسئولية النهاية ولا أتحملها وحدي أيضًا، وأقول في موضوعية إن المسئولية موزعة بيننا. هل يكمن السر في الضغوط العاتية التي تعرض لها من زوجه الأولى وأولاده؟.

أم أن شعوري الكامن بأنه ليس ملكًا خالصًا لي قد انعكس بالسلب على أسلوبي في التعامل معه؟. لست أدري على وجه اليقين، لكنه انتقل إلى رحمة الله بعد شهر واحد من الطلاق، ويعلم الله وحده ما عانيته من عذاب.

ثلاث زيجات في سبع سنوات؟!. هكذا قلت لنفسي في غضب قبل أن أضيف: لا تنبئ المؤشرات بنجاح، ولاشك انها إرادة الله لحكمة أجهلها. لابد من التعود على الحياة بلا زواج، وقد التزمت بقراري هذا لسنوات غير قليلة، ومع انشغالي في تمثيل عدد من الأفلام، فضلاً عن الرقص، استطعت أن أتجاوز مرارة الوحدة، ولم أكن أعرف أن المخرج السينمائي الكبير جمال أنور سيكون زوجي الرابع. تعاونا في عدد من الأفلام، وتزوجنا أثناء تصوير الفيلم السادس. كانت الزيجة الأطول في حياتي، ولعل الملمح الأهم فيها هو الاحترام المتبادل والثقة غير المحدودة، لكنني مع الاقتراب من عامي الأربعين، شعرت باليأس من تحقيق حلمي في الإنجاب، وانعكس ذلك على سلوكي الذي تحول إلى العصبية الدائمة غير المبررة. لم يحتمل جمال لفرط رقته، وانتهى الأمر بالطلاق في صيف العام ١٩٩٤.

كان قراري حاسمًا هذه المرة بتجنب تكرار تجربة الزواج، فلا معنى للعناد والإصرار على طموح الاستقرار الذي يبدو بعيدًا لأسباب أجهلها. بعد سنوات من القرار الذي تشبثت به في إصرار، التقيت بآخر أزواجي رجل الأعمال علي شافعي، أحد أهم العاملين في صناعة السياحة. تعاقد معي للرقص في إحدى القرى السياحية، ووجدت في حضرة البحر والهدوء سعادة وراحة نفسية لم

أحظ بها من قبل. لم أتردد كثيرًا في قبول عرض الزواج، لكننا بعد عام واحد لم نجد السعادة التي كنا نراودها ونراهن عليها، وانفصلنا في هدوء يليق بحجم العلاقة المتحضرة التي كانت تجمعنا.

أعترف بغياب التوفيق في زيجاتي الخمس، وأقر بأنني لم أظفر بالسعادة إلا في فترات قصيرة استثنائية. في السنوات العشر الأخيرة، أتعايش مع الوحدة بلا ضيق أو توتر، وأنفق وقتي مستمتعة بلذة العبادة ومتعة القراءة ونشوة الاستماع إلى الموسيقى والغناء، فضلاً عن العمل الخيري الذي أحيطه بالسرية والكتمان، فأنا لا أرجو منه إلا رضا الله. يتسع قلبي لحب العالم، وأستعيد ذكريات العمر لأفتش عن كل جميل منعش، وأحمد الله الذي يمنح ويسلب لحكمة قد لا ندركها، لكن الإيمان بحكمته هو جوهر السعادة التي ننشدها ونبحث عنها.

.....

حلو قوي الكلام ده يا مختار.. مستوى ومتسبك على نار هادية وزي الفل.. انت صنايعي صحيح ومخك الألماظ ده كله مفهومية.. الكتاب ماشي لغاية كده تمام التمام.. لكن الموضوع اللي عايزني أتكلم فيه النهاردة صعب شويتين.. انت عارف طبعًا إني ماليش تقل في حكاية القراية والثقافة دي.. قول يا باسط وصلي ع اللي يشفع فيك.. أنا صحيح واخدة دبلوم تجارة قد الدنيا.. وكنت جايبة في الإعدادية مجموع يدخلني ثانوي.. واشتغلت ييجي سنة في وزارة الصحة.. لكن آخري قراية الجرايد والمجلات.. ولما ربنا كرمني بقيت أقرا السيناريوهات بتوع الكام فيلم اللي عملتهم.. بيني وبينك عمري ما قريت كتاب.. الكدب على الله خيبة.. مرة واحدة بس قريت كتاب من الجلدة للجلدة.. من قيمة تلاتين سنة كده.. الست اعتماد خورشيد عملت كتاب كسر الدنيا.. وسمعت إنه مليان فضايح وبلاوي زرقا.. بعت اشتريته وسهرت عليه.. يالهوي يا لهوي يا أخويا على اللي كان بيحصل واحنا مش داريين.. والله أنا ليلتها اتخضيت واترعبت.. ودعيت ربنا يمن عليا بالستر..

بيني وبينك اتصدمت قوي م اللي مكتوب عن أسماء كبيرة.. فكرتي عنهم كانت غير كده خالص.. هو مش الكلام ده حصل برضه ولا الكتاب كدب؟.. ما علينا.. أرجع أقولك أنا ما ليش في حكاية الكتب والقراية.. بس أبويا الله يرحمه كان بيشتري مجلة الكواكب عشان أمي بتحبها.. كنت بأقلب فيها واتفرج على الصور وأنا صغيرة.. ولما كبرت واتعلمت القراية بقيت أقراها صفحة صفحة.. وأعرف كل الأخبار عن الأفلام الجديدة والمسرحيات

والأغاني.. ما حدش في اللي اتجوزتهم كان ليه في القراية إلا الشيخ عبدالله.. كان عنده مكتبة كبيرة قوي.. وكل يوم والتاني يشتري كراتين كتب.. حاول يجرني لسكة القراية ما عرفش.. أيوه افتكرت صحيح.. لما كنت بأشتغل في السينما.. المنتج جابلي مرة رواية صغيرة كده للأستاذ نجيب محفوظ.. كان اسمها أفراح القبة تقريبًا.. المنتج قالي إنه عايز يقلبها فيلم.. ولما سألته عن دوري قال إنه بطولة.. ها أعمل ممثلة اسمها درية ولا بدرية.. مش فاكرة يا مختار.. هي بتحب عيل أصغر منها وهاتتجوزه وتموت بعد ما تولد.. بين وبينك اتشاءمت.. ايه النكد ده؟.. قلتله ربنا يسهل..

ساب الكتاب وما فتحتوش.. هو كمان صرف نظر.. بس على فكرة أنا شفت أفلام كتير للأستاذ نجيب.. كان نفسي ومن عيني أعمل دور الست شادية في زقاق المدق.. بس كنت ها أوصي المخرج ما تموتش.. تعويرة بسيطة كده وترجع ترقص وهي شايلة العلم.. مش أحسن برضه؟.. المهم بقى يا سيدي.. ما ينفعش تصرف نظر عن الفصل ده؟.. اللي انت كاتبه في الورقة اللي قدامي دا كتير.. ايه ده.. مسرح.. موسيقى.. أدب.. شعر.. تاريخ.. سينما.. فن تشكيلي.. عمارة.. سيرة ذاتية.. دين.. تصوف.. علم نفس.. ألا يعني ايه السيرة دي؟.. خف شوية يا حبيبي.. عجبتك الكفتة؟.. يا راجل كل.. طب اشرب كاس.. وحياتي عندك لتشرب.. انت يعني مصمم؟.. ماشي.. شيل انت بقى الليلة كلها.. اكتب يا سيدي اللي انت عايزه..

شوف.. موضوع الغنا والأفلام مقدور عليه.. أنا سميعة درجة أولى.. ومن صغري بأحب السيما.. ورثت عن أبويا حب الست أم كلثوم والست ليلى مراد.. لما كنت في إعدادي وثانوي تجاري حبيت نجاة وشادية وفايزة وعبدالحليم وفريد ومحمد رشدي.. أيامها كان الطرب فرز أول.. مش زي أيامنا الغبرا.. لما اشتغلت رقاصة كان بيغني قدامي ناس جامدين برضه.. خد عندك.. أحمد عدوية وكتكوت الأمير وحسن الأسمر وعبدالباسط حمودة.. وشوية كده مع شعبان عبدالرحيم وحكيم.. على فكرة يا مختار.. الشيخ عبدالله كان غاوي مزيكا أفرنجي.. ما كنتش بأفهم منها حاجة.. يقعد معايا بالليل ويكلمني عن بيتهوفن وباخ وموزار.. وواحد تاني كده اسمه صعب.. ولما يسمع عربي كان يشغل الست فيروز..

تصدق بالله.. قول يا أخي لا إله إلا الله.. ما تشرب يا مختار.. كنت بأقول ايه.. أنا دلوقتي بأسمع الست أم كلثوم على طول.. بصراحة صوتها مالوش مثيل.. وكلامها موزون وليه معنى.. اسمعها كده يا سيدي وهي بتقول.. كنت أشتكي لك أيامي.. اشكي لمين ظلمك ليا.. والا لما تلعلع في رباعيات سي عمر الخيام.. الله الله يا ست.. ربنا يرحمها ويحسن إليها.. دي مش ممكن تتكرر تاني يا سي مختار.. صدق اللي قال المغنى حياة الروح.. يسمعها العليل تشفيه.. أي والله صحيح.. لما أخويا أنور راح الله يرحمه.. وحصلته أمي.. كان ابويا يسمع الست ليلى وهي بتغني.. يا مسافر وناسي هواك.. يغني معاها ويعيط.. أيام.. والله الغنا الحلو دوا بجد..

مش ها تصدق لو قتلتلك إن الحاج صلاح عرام كان غاوي محمد عبدالمطلب.. سيبك من الدقن وزبيبة الصلا.. لما يحشش وينسطل ويسمعه تحس إنه طاير في السما وعامل دماغ.. والله الدنيا مليانة يا مختار.. اشرب يا راجل.. الأفلام دي بقى حكاية طويلة.. شفت ياما.. السنة اللي خدت فيها الدبلوم رحت مع محمود السيما.. شفت معاه فيلمين حلوين قوي.. فاكراهم كأني شفتهم انبارح.. الأولاني اسمه المراية.. بتاع الست نجلاء فتحي والمرحوم نور الشريف.. والفيلم التاني اسمه غروب وشروق.. الست سعاد حسني والأستاذ رشدي أباظة.. لكن أكتر ممثلة باحبها فاتن حمامة.. ست كاملة من مجاميعه.. أحسن ممثل رشدي أباظة طبعًا.. بأموت فيه من صغري.. كان أمل حياتي أمثل معاه.. ما حصلش نصيب.. الله يرحمه اتخطف بدري.. أحمد رمزي حكاية لوحده.. أنا عرفته وقعدت معاه.. دمه خفيف زي الشربات.. وأحسن واحد يعامل الستات.. أول مرة شفته كنت مع جوزي.. كنت على ذمة فتحي أيامها.. لقيته بيقولي إني أجمل واحدة شافها في حياته.. بعدين بص لفتحي وضحك.. قاله ما تزعلش.. اللي يشوف القمر لازم يقول الله.. أنا مش عارفة ليه بطل تمثيل وهو صغير.. تعرف يا مختار.. أنا يومي طويل قوي.. أنا بأشوف فيلمين تلاتة.. الريحاني وإسماعيل ياسين.. عماد حمدي وأحمد مظهر.. لبنى عبدالعزيز ونادية لطفي وزبيدة ثروت.. هي الناس العظيمة دي كلها راحت فين.. لا.. بصراحة ماليش تقل على الأفلام الإنجليزي والأمريكاني.. ولا حتى الهندي.. النبي عربي يا مختار والبلد يوكل.. لا يا شيخ.. انت بتصدق الكلام ده..

سينما ايه اللي بتعلم العيال البوظان؟.. اليومين دول بيتولدوا بايظين.. مش محتاجين حد يعلمهم.. والنبي من زمان قوي ما رحتش مسرح.. عمري ما فوت مسرحية لعادل إمام.. من أيام مدرسة المشاغبين وشاهد ما شافش حاجة.. دا يضحك الحجر.. رسالة ايه يا مختار بس وفن رفيع ايه؟..

هو ممثل ولا واعظ؟.. المهم الناس تفرفش وتنبسط.. ياما عرضوا عليا أعمل مسرحيات.. تمثيل ورقص سوا.. لا يا أخويا.. دي مرمطة وبهدلة وتعب.. أنا مالي وفيفي عبده؟.. كل واحد حر في حياته.. لا.. كفاية كده.. عشان خاطري يا مختار.. والنبي يا شيخ كفاية.. اتصرف انت في الفصل ده.. قول الشويتين الحلوين بتوعك.. أنا عارفة إنك هاتسد.. هو فيه حد برضه يراجع وراك ولا يعدل عليك.. اشرب يا شيخ.. والنبي لتشرب.

الفصل الخامس: واحة الثقافة

تلعب التنشئة الأسرية دورًا بالغ الأهمية في تشكيل الشخصية وتحديد الموقف النظري والعملي من الثقافة، وقد ولدت في بيت ذي ثقافة رفيعة وخصوصية حضارية عصرية، تعلي من شان القراءة، وتجل الفن وتقدره، وترى في الموسيقى والتصوير والعمارة والنحت والباليه عناصر ضرورية في النسيج اليومي للحياة. المكتبة تحتل غرفة فسيحة وتضم آلاف الكتب باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، وتزدحم الجدران بعشرات اللوحات العالمية والمحلية، وفي الردهة الرئيسة بيانو تعزف عليه أمي، فهل كنت أملك إلا أن أتأثر بالمناخ وأندمج في منظومة قواعده ومعطياته وقيمه؟.

بعد اعتزال العمل الفني والابتعاد عن صخب الحياة الاجتماعية، أنفق جل وقتي في القراءة والاستماع والمشاهدة. القراءة في التصوف تستغرق الأغلب الأعم من الساعات المخصصة للقراءة، وأجد في حكم ابن عطاء الله السكندري لذة ومتعة، ومع صعوبة "الفتوحات الملكية" لمحيي الدين بن عربي، فإنني أثابر وأجاهد للتواصل معه، أما الأقرب إلى قلبي فهو النفري صاحب الكتاب المتفرد المدهش غير المسبوق "المواقف والمخاطبات". وقد انتهيت قبل سنوات إلى مكانة وأهمية فضيلة الإمام الأكبر الدكتور الشيخ عبدالحليم محمود، واقتنيت كل كتبه عن التصوف. أبحث فيها عن

أداة تعينني في فهم العالم الثري الذي يؤهلني لإعادة اكتشاف الوجود، وأقول لنفسي كم أنا محظوظة سعيدة الحظ لأنني أقرأ جلال الدين الرومي بالعربية والإنجليزية، فهو كنز لا ينضب، يثري الروح ويضيء القلب، أما ديوان الحلاج فهو بالقرب مني دائمًا.

الأدب واحتي وراحتي، وأجمل ساعات عمري هي تلك التي أقضيها في قراءة الأعمال الروائية ثقيلة الوزن عظيمة القيمة. بالإنجليزية والفرنسية قرأت تشارلز ديكنز وبلزاك وإميل زولا وتولستوي وتورجنيف ودو ستويفسكي وجون شتاينبك وكازانتزاكي وهرمان هسة وبيرل بك وفلوبير وجورج أورول ومارسيل بروست ولورانس وكونديرا وماركيز وعشرات غيرهم، أما الرواية العربية فأقول إن عددًا غير قليل من كتابها يناطحون الأفذاذ العالميين، وفي مقدمة هؤلاء نجيب محفوظ والطيب صالح وحنا مينا وعبدالرحمن منيف. أجد في الروايات الجيدة، بمختلف اللغات، بديلاً مشبعًا لما أفتقده في الحياة، وأزداد وعيًا وإدراكًا بفضل التجارب التي أطالعها وأندمج فيها وأذوب إلى درجة التعايش الكامل مع الأحداث. من أحلامي التي لم تتحقق، وما أكثرها، أن أقدم فيلمًا عن إحدى روائع نجيب محفوظ التي لم تُقدم في السينما، وقد قطعت شوطًا كبيرًا في الإعداد لإنتاج روايته البديعة "أفراح القبة"، وعشت مع شخصية بدرية حتى استوعبت أبعادها لأتمكن من تجسيدها، لكن المشروع تعثر ولم يكتمل.

لقد بدأت رحلتي مع القراءة بالشائع المنتشر من كتب ومجلات الأطفال خلال مرحلتي الدراسة الابتدائية والإعدادية، ومع تجاوز سنوات الطفولة والمراهقة، تعددت وتنوعت القراءات. عندما عرف المرحوم أبي برغبتي في الالتحاق بكلية الآداب ودراسة التاريخ، أوصاني أن أبدي الاهتمام الأكبر بالتاريخ الإسلامي وقضاياه الشائكة، وهو من دلني على مؤلفات الدكتور طه حسين التي يراها ضرورية لا غنى عنها لتشكيل رؤية ناضجة تتكئ على المنهج العلمي، وبفضل توجيهه أيضًا اطلعت على عبقريات العقاد ودراسات أحمد أمين والدكتور محمد حسين هيكل، أما كتاب الشيخ علي عبدالرازق عن "الإسلام وأصول الحكم" فقد ترك في نفسي أعمق الأثر، وقد عدت إليه مجددًا قبل سنوات، عند انتخاب الرئيس الإخواني محمد مرسي، وفي سنة حكمه ثقيلة الوطء تيقنت عمليًا من خطورة الخلط المدمر بين الدين والسياسة، بكل ما يترتب على ذلك من تداعيات ونتائج وآثار كارثية.

في سنوات الجامعة، لم يكن تعلقي بالقراءة في التاريخ يتوقف عند ما يتطلبه التخصص والمقرر، وقد وجدت في العصر المملوكي جاذبية طاغية وسحرًا خلابًا فقرأت عنه عشرات الكتب بالعربية والإنجليزية، وبعد رحيل الرئيس الأسبق جمال عبدالناصر، حدثني أبي طويلاً عن الحياة المصرية قبل سنة ١٩٥٢، وأكد لي أنها تعرضت للكثير من التشويه العمدي لخدمة النظام الناصري. قرأت عن المرحلة فاكتشفت حجم التزييف الذي يتعرض له تاريخنا القريب، فكيف يكون الأمر إذن مع العهود البعيدة؟.

كانت مصر حافلة بالكثير من الإنجازات الرائعة بعد ثورة ١٩١٩، وشهدت نهضة اقتصادية وثقافية وتعليمية، ولا أنسى نبرة صوت أبي المغلفة بالمرارة وهو يعترف بخوفه من الحديث معي قبل سنوات، في ظل القبضة الأمنية القاسية التي لا تعرف الرحمة، وتتعامل مع كل تقييم موضوعي لسنوات ما كان يُسمى بـ"العهد البائد" كأنها نوع من الخيانة التي تستوجب العقاب.

على الرغم من احترافي للرقص وولعي به، وسعيي الدائم إلى الاجتهاد للتجديد والابتكار، فإن السينما هي أقرب الفنون إلى قلبي، فهي بحق مجمع الفنون. شاهدت مئات الأفلام العربية والأجنبية عبر سنوات عمري، وتعريف الفيلم الجيد عندي يقترن بالقدرة على الجمع بين متعتي الفرجة والفكر معًا. لا أستطيع أن أحصي عدد المخرجين والممثلين الذين أحبهم في تاريخ السينما المحلية والعالمية، لكنني أحببت مارلين مونرو كما لم أحب أحدًا، وجوليا روبرتس هي الأعظم والأكثر تأثيرًا من المعاصرات، أما نجوم السينما المصرية فيتصدر القائمة زكي رستم وحسين رياض ومحمود المليجي ومحمود مرسي، ثم نور الشريف وأحمد زكي من أبناء الأجيال التالية.

الممثلات الأعظم عندي هن فاتن حمامة وسعاد حسني ويسرا، ومن الجدد منى زكي ومنة شلبي وهند صبري، وتحظى المرحومة تحية كاريوكا بمكانة خاصة لأنها تجمع بين الرقص والتمثيل في توافق جدير بالإعجاب، ومع احترامي الكامل للزميلات نجوى فؤاد وفيفي عبده ولوسي ودينا، فإن واحدة منهن لا يمكن أن تُقارن بالسيدة تحية. لقد قرأت عشرات الكتب عن السينما،

وأشعر بحزن لا أخفيه لأنني لم أحقق في الأفلام التي قدمتها ما كنت أؤمله، والأمر في رأيي مردود إلى طبيعة المناخ المضطرب الذي ظهرت فيه أفلامي.

الموسيقى حبي الثاني بعد السينما، والإحساس بالإيقاع هو جوهر إبداع الراقصة والملمح الأهم في شخصيتها. بحكم نشأته وإقامته الطويلة في أوروبا، كان أبي مولعًا بالموسيقى الغربية، ويصل حبه لفاجنر إلى حد الهوس، لكن اهتمامه بالموسيقى العربية لم يغب، والذي أعرفه عن يقين أنه التزم بحضور حفلات كوكب الشرق منذ أوائل الأربعينيات حتى هزيمة ١٩٦٧، فقد امتنع بعدها عن الذهاب إلى الحفلات الشهرية، مكتفيًا بالاستماع إليها عبر جهاز الراديو القديم العتيق الذي كان يعتز به كثيرًا. على الرغم من حبه الأسطوري غير المحدود لأم كلثوم، فإن السيدة ليلى مراد كانت هي الأقرب إلى عقله وروحه. لم يكن يستمع إلى أحد غيرها بعد استشهاد أنور ووفاة أمي، ولاشك أنني ورثت عنه حب الموسيقى والغناء، ووجدت في الغناء الشعبي ما يستدعي الإعجاب والاهتمام. لا أتفق مع بعض المثقفين الذين يتعالون على أحمد عدوية وحسن الأسمر، وهما من أصحاب الأصوات العذبة. عملت معهما ومع عدد كبير من عمالقة الغناء الشعبي، وقد لا يكون شعبان عبدالرحيم من أصحاب الأصوات الجميلة، لكنه ظاهرة لا ينبغي إهمالها أو إنكار شعبيتها، وتعبير عن التحولات الجذرية في ثقافة وذائقة المجتمع المصري في العقود الأخيرة.

ولدت وعشت طفولتي المبكرة في الدقي، وسنوات المراهقة والشباب في المعادي، وأقمت لفترة غير قصيرة في الزمالك، ثم انتقلت بعد ذلك إلى المهندسين حيث أعيش حاليًا. أستطيع القول إن الطرز المعمارية في الدقي والمعادي والزمالك ذات تكوين فني رفيع، والفيلا التي أقيم فيها تنتمي إلى الإطار الجمالي نفسه، فقد كلفت مهندسًا عبقريًا بوضع تصميمها والإشراف على تنفيذها، وهو المرحوم إبراهيم اسحق، لكنني أشعر بالحسرة للتدهور الذي تتحول معه الأحياء القديمة الراقية إلى عشوائيات قبيحة تفتقد الحد الأدنى من التجانس والانسجام. عندما انتقلت للسكنى في المهندسين، قبل ثلاثين عامًا على وجه التقريب، كانت حيًا وديعًا هادئًا قليل الزحام، وسرعان ما تحولت الفيلات الأنيقة والعمارات متوسطة الارتفاع إلى غابة من الأسمنت، تعلو فيها الأبراج وينتشر الضجيج المزعج، ولا تآلف أو تنسيق بين بنايتين متجاورتين. عندما قرأت كتاب "عمارة الفقراء" للمهندس العبقري حسن فتحي، بالفرنسية أولاً ثم بالعربية، تمنيت أن أعهد إليه بتصميم بيتي، لكنني لم أنل هذا الشرف العظيم لسوء حظي.

لا ينفصل اهتمامي بالعمارة عن تعلقي بالفن التشكيلي، وكم أشعر بالفخر لأن المرحوم أبي كان من أصدقاء الفنان المصري العالمي محمود سعيد ويقتني بعض لوحاته، التي أحتفظ بها حتى الآن وأرى فيها ثروة معنوية لا تُقدر بمال. في زياراتي للعواصم الأوربية، باريس وروما وفيينا تحديدًا، أحرص على الطواف بالمتاحف ومعارض الفن التشكيلي من مختلف المدارس

والاتجاهات، والاستمتاع بالإبداع الفني الراقي الذي هو الثروة الأعظم للأمم والشعوب. كانت حصة الرسم مفردة مهمة ذات شأن في سنوات التعليم الابتدائي والإعدادي، وكذلك حصة الموسيقى، فأين هما الآن في مدارسنا، ولا أستثني المدارس الخاصة باهظة المصاريف؟. كان تمثال نهضة مصر، للفنان الكبير محمود مختار، ينعشني عندما أراه مرتين كل يوم خلال سنوات دراستي بجامعة القاهرة، وها أنذا أعيش لكي أقرأ فتاوى غرائبية تحرم النحت وتعتبره نوعًا من الوثنية وعبادة الأصنام!.

عرفت من أمي أن أبي كان يكتب الشعر والقصة القصيرة في شبابه، ونشر بعض إنتاجه الشعري والقصصي في الأربعينيات والخمسينيات، لكنني لم أقرأ له شيئًا، وبحثت طويلاً في مكتبته العملاقة فلم أجد شيئًا مما كان يكتبه وينشره. تعلقت بالشعر وكنت الأبرز ممن يلقونه في حفلات المدرسة، وإذا كان الشعر العربي القديم يمثل صعوبة حقيقية في استيعابه، لما أجد فيه من مفردات مهجورة من ناحية وغلبة المديح والهجاء من ناحية أخرى، فإن الأمر مختلف مع الشعر العربي الحديث، حيث عذوبة شعراء المهجر، والرقة الرومانسية المذهلة لإبراهيم ناجي، والشجن الفلسفي في شعر صلاح عبدالصبور، والتفرد في الصور والرؤى عند محمود درويش. هؤلاء هم الأقرب إلى قلبي في الشعر الحديث المكتوب بالفصحى، وفي العامية أستمتع كثيرًا ببيرم التونسي وفؤاد حداد وصلاح جاهين، أما العظيم لويس أراغون

فهو الشاعر الذي أعود إليه كثيرًا، وبخاصة في قصيدته الفذة التي لا شبيه لها: عيون إلزا.

لي مع المسرح قصة مختلفة، ذلك أنني قد قرأت عشرات المسرحيات العالمية لأعلام وقامات شامخة، شكسبير وموليير وابسن وآرثر ميلر وتنيسي وليامز وهارولد بنتر وغيرهم، وقرأت بالعربية لتوفيق الحكيم ونعمان عاشور وسعد الدين وهبة وألفريد فرج ومحمود دياب وسعد الله ونوس. حبي للمسرح، قراءة ومشاهدة، من الحقائق الراسخة المستقرة في حياتي، لكنني رفضت عروضًا كثيرة للتمثيل المسرحي. لا تناقض هنا أو مفارقة تستدعي الدهشة، فأنا أدرك صعوبة المهمة وخطورة المسئولية. المواجهة اليومية للجمهور عبء يفوق طاقتي، ولا أنكر أيضًا أن طبيعة النصوص التي يقدمها المسرح الخاص لا ترقى إلى مستوى طموحي ولا تشجعني على الإقبال والقبول، أما مسرح الدولة فهو يعاني من مشاكل متراكمة تحول دون قيامه بالدور التنويري المنشود. لعل الفنان الكبير عادل إمام هو الوحيد الذي كنت أتمنى أن أمثل أمامه، لكن الحلم لم يتحقق، أما الدور الذي كنت أتمنى أن أكون صاحبته فهو الذي قامت به سيدة المسرح سميحة أيوب في مسرحية "سكة السلامة".

رحلتي مع الثقافة طويلة حافلة بالمحطات المثيرة، ولابد من الإقرار بأنني مدينة لآلاف الكتب التي أسعدتني وأمتعتني وأضافت إلى عمري أعمارًا. أعيش الآن مرحلة أراود فيها معانقة الهدوء والصفاء والابتعاد عن التوتر، ولذلك أجد في كتب التصوف ما يؤنس وحدتي ويبدد وحشتي، وكذلك أنهمك في قراءة كتب

في علم النفس للبحث عن إجابات على الأسئلة الكثيرة التي تراودني. الإنسان كائن عظيم بقدر ما هو معقد غامض سريع التحولات، لا يسهل عليه أن يستقر ويرضى بالمتاح له من المعارف، وقد نصحني أستاذي وصديقي عبدالرحيم محسن، الفقيه القانوني والمحامي القدير الذي يلعب في حياتي دور الأب أو الشقيق الأكبر، أن أهتم بقراءة السير الذاتية للعظماء من صانعي التاريخ، فهو يرى عن حق أن الدروس المستفادة من تجاربهم لابد أن تكون مفيدة مشبعة، وقد التزمت بنصيحته الثمينة فوجدت نفسي مدفوعة للاحتذاء بهم والتفكير في كتابة ونشر مذكراتي، ليس لأنني أرى في تجارب حياتي ما يقترب من عظمة جان جاك روسو وهيلين كيلر وغاندي ونهرو وتشرشل وشارلي شابلن ونيلسون مانديلا، بل لأنني أراهن على التطهير النفسي وإعادة إنتاج وتأمل سنوات العمر.

الثقافة مفهوم معقد مركب يصعب تعريفه والإمساك الصارم بمفاتيحه، وأفكر أحيانًا أن كلمات مثل الحب والألم والفن والثقافة، وغيرها، يمكن الإحساس بها والتعامل معها دون نظر إلى الإمساك بتعريف لن يغير شيئًا من جوهر المفردات التي تشكل نسيج الحياة الإنسانية.

.....

والله مش عارفه أقولك ايه يا مختار.. بس طبعًا يعني انت أدرى.. حكاية التصوف دي أنا ماليش فيها.. والأسماء الخواجاتي اللي بيكتبوا روايات دول عمري ما سمعت عنهم.. بالنسبة للتاريخ والمماليك وطه حسين والشويتين دول كلامك زي الفل.. أبويا الله يرحمه كان بيحكيلي برضه إنه كان بيحب الملك فاروق قبل ما يتعلم البوظان.. بس أنا ليا عليك عتاب.. الممثلين اللي انت كتبت إني بأحبهم على دماغي من فوق.. لكن يا ريت برضه تحط رشدي أباظة وأحمد رمزي.. أنا مش قلت لك كتير إني بأموت فيهم؟.. كمان الست تحية كاريوكا رقاصة جدعة بألف راجل.. بس مش كان واجب تقول كلمتين عن نعيمة عاكف؟.. بعدين أنا مش عايزة عداوات مع حد.. يعني مالوش لزوم نلطش في فيفي عبده ولوسي ودينا.. دول في الآخر ولاد كار.. بعدين الكلام يوصلهم وياخدوا على خاطرهم..

تصدق بالله يا مختار يا حبيبي؟.. قول لا إله إلا الله.. انت يظهر مكشوف عنك الحجاب.. والله أنا طول عمري نفسي أمثل دور سوسو اللي عملته الست سميحة أيوب.. دي ممثلة جامدة قوي.. ما علينا.. انت النهاردة عايزني أفضفض شوية في موضوع السياسة والمشاكل اللي تاعبة الناس.. بصراحة كدة الورقة اللي انت كاتبها فيها كلام مكلكع.. لكن ربنا يعين.. شوف بقى.. أنا طول عمري بأكره سيرة السياسة ووجع الدماغ.. بعيد عنك ما يجيش من وراها غير البلاوي.. أبويا الله يرحمه كان بيقول السياسة نجاسة.. وانت فكرك ايه اللي ضيع الحاج صلاح ووداه توكر..

عشان كل فلوس الناس؟.. لا وحياتك.. هي المدعوكة السياسة.. أنا ست في حالي طول عمري.. ونصيحتي ليك يا سي مختار.. خليك في حالك.. يزيد راسمالك.. البعيد عن السلطان سلطان يا أخويا.. والله العظيم الكلام ده عين الحكمة.. أنا ما أعرفش يعني ايه الديمقراطية اللي انت كاتبها.. لكن لو هي حاجة كويسة وما فيهاش مشاكل يبقى على بركة الله.. اكتب عنها كلمتين حلوين باللي يخلص ضميرك.. الأحزاب دي أنا بأسمع عنها وعارفاها كويس.. انت مش عارف إني كنت متجوزة عضو مجلس شعب في الحزب الوطني بتاع الريس. كلمة منه كانت تحل وتربط.. ومره زمان رقصت في فرح بتاع ناس أكابر قوي.. حضره راجل فخم قوي وعجوز.. ماسك في ايده سيجار زي صباع الكفتة.. قالولي إنه الباشا فؤاد سراج الدين.. كان ليه هيبة كده.. وعرفت إنه رئيس حزب الوفد.. سمعت أبويا مرة بيقول إنه الحزب بتاع سعد باشا ومصطفى النحاس.. الله يرحمهم ويرحم أموات المسلمين..

والله انا فاكرة زمان.. لما كنت في أولى إعدادي.. أبويا رجع متعكر قوي وقال لأمي إن النحاس باشا مات.. وسمعت إن فيه واحد جارنا عجوز قوي مشي في جنازته وقبضوا عليه.. الكلام ده فات عليه خمسين سنه.. المهم.. يعني ايه حزب الكنبة؟.. قصدك يعني الناس اللي عايزين الستر وبيبعدوا عن وجع الدماغ؟!.. بيني وبينك دول أجدع ناس وجايبين م الآخر.. أصل يا مختار يا حبيبي فيه حكمه قالوها زمان.. العروسة للعريس والجري للمتاعيس.. وعلى رأي المثل.. يا داخل بين البصلة وقشرتها.. كمل بقى.. أيوه الله ينور عليك..

تمام كده.. الكبار ماسكين كل حاجة.. والصغيرين يندا سوا تحت الرجلين.. يبقى ايه؟.. نبعد عن الشر.. أنا بأسمع برصه عن العدالة الاجتماعية دي.. لو كان الغرض يعني إن الناس الغلابة تاكل وتشرب وتسكن وتلبس.. يبقى زي الفل.. حد يكره الخير؟.. بس بصراحة يعني.. كل واحد ياخد نصيبه.. الرزق من عند ربنا.. ربك هو العاطي.. وصوابعك مش زي بعضيها.. وعلى رأي الحاج صلاح.. كان دايمًا يقول الناس مقامات يا ليلى.. والصعاليك غير الملوك.. بس اعمل معروف.. ابعدني عن سكة الحكام.. أنا بأحب عبدالناصر الله يرحمه من صغري.. وأبويا مالي البيت بصوره.. تصدق بالله؟.. هو وأمي عيطوا عليه زي العيال لما مات.. وأنا ما كنتش مصدقة إنه ممكن يموت زي الناس.. الله يرحمه كان شكله مريح ويديك إحساس إنه راجل جدع وشهم.. والسادات راخر كان مجدع وابن بلد..

بالنسبة لمبارك بقى أنا عشت في زمنه أحلى أيام.. ومن يوم ما ساب البلد وهي خربانة وعيارها مفلوت.. لكن سيبك انت.. الرئيس السيسي هايعدل المايلة بعون الله.. كفاية إنه خلصنا من الإخوان.. إسألني أنا عنهم.. أيامهم سودا الله لا يعيدها يا شيخ.. انت راجل متنور وكلك نظر.. إذا كان لازم يعني حكاية السياسة والمجتمع دي.. اتصرف وأنا باصمة بالعشرة على اللي تقوله.. عارف المشاكل اللي انت كاتب عناوينها في الورقة دي.. أنا ليا فيها رأي وعندي خبرة معتبرة.. فعلاً فيه عنوسة واللي يقول غير كده كداب.. البنات البايرة كتير يا مختار.. تسألني ليه.. أقولك.. الغلا يا أستاذ..

الغلا والمظاهر الكدابة.. شبكة ومهر وفرح وشقة بالشيء الفلاني.. الشباب هايجيبوا منين؟.. سيبك من الغناي المليانين.. دول مش كتير.. أنا ياما رقصت في أفراحهم وكانوا بيصرفوا زي الرز.. يظهر إنها فلوس ما تعبوش فيها.. أقول ايه بس.. ربنا يسترع الولايا.. الجواز سترة برضة..

الطلاق كتر ليه؟!.. أقولك يا سيدي.. نفس الحكاية برضه.. الغلا والفقر يا مختار.. أصل لما الفقر يدخل من الباب.. راحة البال تنط من الشباك.. النقار بيزيد.. كلمة من هنا وكلمة من هناك.. هوب.. تلاقيها حريقة وولعت.. الراجل يشتغل شغلانتين تلاتة.. والست مدعوكة في البيت.. الله يرحمها أمي كانت عارفة تلم أبويا.. تخليه يسكر في البيت ويفرفش.. وتشرب معاه كمان.. مش أحسن ما يطفش ويلوف على واحدة تانية.. الستات بتوع زمان كانوا واعيين وعايزين يعيشوا.. كانت دايمًا على سنجة عشرة زي العروسة.. بس بيني وبينك زمان ما كانتش الدنيا غالية كده.. والله ما أنا عارفه ايه الزفت اللي اسمه التحرش والاغتصاب وقلة الأدب دي.. الأخلاق باظت يا أستاذ مختار.. زمان كان الشاب من دول.. يوم ما يهز طوله ويعمل عنتر.. يقول للبنت كلمتين ع الماشي.. يا حلو.. يا جميل.. يا قمر.. الفستان هاينطق يا ناس.. لكن يقرب ويمد ايده؟.. يا خبر اسود.. عمرها ما حصلت.. وكان ساعتها ايه؟.. الشابة من دول لابسة قصير ومحزق ومتعطرة.. دلوقت أد أنت شايف.. البانجو والبرشام عامل عمايله.. مين اللي قال الكلام ده؟

لبس ايه اللي بيغري الشباب؟.. هما يعني المحجبات والمنقبات بيسلموا؟.. ولا حتى الست اللي عدت الستين؟.. العيار فلت خلاص.. ايه الكلام ده؟.. يعني ايه زنا المحارم؟.. أيوه فهمت ما تكملش.. دا غضب الله.. والله من علامات الساعة يا مختار.. طبعًا بأسمع وأتفرج عن الحاجات دي.. أعوذ بالله. معقولة الفقر يعمل كده؟.. استرها علينا يا رب..

الكلمة دي أنا عارفاها كويس.. أيوه طبعًا.. الشذوذ.. عندي عنه حكايات بالكوم.. بس يعني ما يصحش أحكيها.. ربنا أمر بالستر.. وباب التوبة مفتوح.. ربنا يهدي الجميع.. أنا معاك إن الأخلاق ضاعت.. لكن ليه؟.. كلك نظر.. تتحل ازاي؟.. لا بقى.. يعني أنا اللي ها أحلها يا مختار؟.. الموضوع كبير يلزمه بهوات من اللي بيقولوا الكلام الكبير.. ما يقدر على القدرة إلا القادر.. ربنا وحده اللي يملك الحل.. رحمته واسعة.. ما تشلش هم.. يعني احنا اللي ها نصلح الكون.. قول يا باسط..

الفصل السادس: رؤى سياسية واجتماعية

كأنه الأمس القريب، اتذكر ذلك اليوم البعيد من شهر أغسطس سنة ١٩٦٥. كان أبي يجلس في المكتبة مطرقًا صامتًا، يكسو وجهه حزن لم أره من قبل، وعندما سألت أمي قالت في صوت خافت تخالطه الدموع إن الزعيم العظيم مصطفى النحاس قد انتقل إلى رحاب الله. لا شيء أعرفه عن صاحب الاسم، ولذلك تخيلت أنه لواحد من أقاربنا، لكنني عرفت كل شيء في سنوات تالية. بعد وفاة الرئيس جمال عبدالناصر، حكى لي أبي بعض التفاصيل عن تاريخه السياسي قبل يوليو ١٩٥٢، وأكد لي أن ثورة ١٩١٩ هي الحدث الأعظم في التاريخ المصري، ثم أضاف في جدية كأنه ينصح: انتبهي يا ليلى وأنت تدرسين التاريخ في الجامعة، فقد تعرض للكثير من التشويه المخرب.

لم يكن أبي يحب الرئيس عبدالناصر، ويراه مسئولاً عن تدمير النشاط الاقتصادي الخاص بفعل قرارات التأميم وفرض الحراسة والشعارات الاشتراكية، وكان يتحفظ أيضًا على الإصلاح الزراعي غير المحسوب وتجربة الوحدة المصرية السورية الموصوفة عنده بالعشوائية، ومغامرة التدخل العسكري في اليمن بكل ما ترتب عليها من آثار سلبية وخيمة، أما هزيمة يونيه ١٩٦٧ فهي الخطيئة الكبرى التي لا تقبل الغفران ولا يمكن أن تُنسى. كان يسخر من ميثاق العمل الوطني وبيان ٣٠ مارس، ويقول إنها خطب مسجوعة

وموضوعات إنشائية لا فكر فيها أو رؤية، والحقبة الناصرية في مجملها ذات طابع بوليسي قمعي، الملمح الرئيس فيها هو الاستبداد والانفراد بالسلطة وإقصاء كل أطياف المعارضة، من اليمين الإخواني إلى اليسار الشيوعي مرورًا بالتيار الليبرالي.

لا يعني هذا أن أبي سياسي على نحو أو آخر، فهو طبيب يتولى منصبًا قياديًا في وزارة الصحة، ويؤدي عمله بكفاءة وإتقان وإخلاص، وهو أيضًا مثقف موسوعي ينشغل بالتأمل والتفكير في الشأن العام، ويعبر عن آرائه عندما تكون الأجواء مواتية. في هذا السياق، كان متعاطفًا مع الوفد قبل يوليو ١٩٥٢، ثم التزم الصمت في العهد الناصري إيثارًا للسلامة، ولم يمتد به العمر ليحظى بقدر من حرية التعبير التي يتسم بها عهد السادات. كان ينصحني دائمًا بالابتعاد عن المشاركة في المظاهرات الطلابية الاحتجاجية، ويقول إن جوهر الوطنية الإيجابية في إتقان العمل.

من دراستي للتاريخ واحتكاكي بالواقع، أوقن أن الديمقراطية هي سر تقدم الأمم ونهضة الشعوب، وهي المفتاح الأساس لصناعة الحضارة التي لا تزدهر في ظل الأنظمة القمعية المستبدة. لا أقول إن الديمقراطية نظام مثالي يخلو من الشوائب، فلا وجود لمثل هذا النمط من الأنظمة في المجتمعات الإنسانية، لكنها أفضل المتاح. هل يمكن أن نقارنها بالحكم العسكري أو الديني؟!. لابد أن تكون الإجابة بالنفي، وأفضل ما في الديمقراطية أنها قادرة على تصحيح أخطائها وتحويل المسار عندما تظهر العكارات والآثار السلبية

لممارسات بعينها، تمثل انحرافًا عن المنشود من توازن وانسجام يسود المجتمع ويتحقق معه الانضباط بلا انفلات.

الديمقراطية ليست صندوقًا انتخابيًا يدلي فيه المواطنون بأصواتهم، وهي ليست كذلك حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف وتنظيم المؤتمرات والمظاهرات. الذين يفهمونها على هذا النحو لا يدركون أنه لا معنى للكلمة بمعزل عن التعليم والوعي والثقافة. كان أحد أزواجي من قيادات الحزب الوطني الحاكم وعضوًا في مجلس الشعب عن أحد الأحياء الشعبية لعدة دورات، وبحكم علاقتي معه اكتشفت أن الفساد ليس سلوكًا فرديًا استثنائيًا يقترن بالأخلاق، لكنه بنية نظام هش متهافت يقوم على الفساد ولا يمكن أن يعيش ويستمر بمعزل عنه. الفساد ليس السرقة واستغلال النفوذ والتربح، لكنه غياب معايير العدالة والنزاهة والتقييم الموضوعي، وهذه هي المشكلة الخطيرة التي لا يمكن التخلص منها على المدى القريب

لا ينبغي أن يكون الحديث عن "حزب الكنبة" في إطار ساخر قوامه التعالي والاقتراب من دائرة الازدراء، فالحزب موضع التهكم تنتمي إليه الأغلبية الساحقة من المصريين المسكونين بمزيج من السلبية واللامبالاة. موقفهم هذا مبرر ولا تسهل إدانته، فهم في حقيقة الأمر ضحايا عقود متتالية من تراجع الحرية وهيمنة الاستبداد والتعامل مع رئيس الدولة كأنه الفرعون الذي تتحتم طاعته ولا تجوز معارضته. لا أزعم أنني خارج صفوف الحزب، فأنا أتابع الأحداث ولا أشارك فيها بإيجابية، وأتمنى لوطني الحبيب أن يتقدم

ويزدهر ويتجاوز الأزمات والمحن التي يواجهها، لكنني لا أجد الإطار العملي المنظم الذي يمكن أن أتحرك في إطاره.

لا أمل في تسييد الديمقراطية وقيمها بمعزل عن العدالة الاجتماعية، التي تعني غياب الفوارق الشاسعة صانعة الحقد والكراهية والصراع الطبقي. أؤمن باستحالة المساواة الكاملة بين البشر، مختلفي المواهب والقدرات والحظوظ، وفي الاتحاد السوفيتي قبل سقوطه لم يزعم أحد من عتاة الشيوعيين وجود مثل هذه المساواة المثالية المستحيلة. النظام الرشيد الجيد هو الذي يحافظ على استقراره بتوفير الحد الأدنى من الحقوق والضمانات، ما يحول دون اشتعال الاضطرابات وتفشي القلاقل. لست خبيرة اقتصادية لأقدم تصورًا متكاملاً عن كيفية تحقيق مثل هذا الطموح الضروري، لكن الدولة بأجهزتها وخبرائها تستطيع أن تفعل، فإن لم تكن قادرة فلا شك أن المستقبل سيكون مظلمًا كالح السواد.

لكي أكون صريحة لا أكذب ولا أتجمل، فإنني لا أؤمن بما يُقال، أو كان يُقال، عن القومية العربية وأحلام الوحدة، ويقيني أنه لا متسع لمثل هذه الأفكار والشعارات العاطفية الإنشائية التي لا تنهض على أساس. لا أنكر جملة المشتركات التي تجمع بين أبناء البلدان العربية، وفي زياراتي لسوريا ولبنان وتونس والإمارات والمغرب، لم أكن أشعر بشيء من الغربة. ما أتحمس له هو استثمار المشاعر الإيجابية في تحقيق المستطاع من نجاحات، وأعني بذلك التنسيق والتعاون المثمر الذي يحقق مصالح الشعوب، بعيدًا عن أحلام

اليقظة الوهمية التي تراود الاندماج الكامل بين أنظمة متناقضة متنافرة على الصعيدين السياسي والاقتصادي. لا أتخيل انخراط السعوديين والسودانيين والسوريين والجزائريين في كيان واحد، ولا أعرف كيف يتجاوزون الاختلافات الاجتماعية والثقافية التي لا يمكن إنكارها أو إهمالها.

في السياق نفسه، وحتى تكتمل أبعاد اللوحة، أقول إنني رفضت عروضًا مغرية لزيارة إسرائيل والرقص في أرقى فنادقها ومنتجعاتها السياحية. لا أكره اليهود لأنهم يهود، فهو بشر مثلنا، لكنني أنفر من فكرة التطبيع مع الدولة الصهيونية العنصرية، ولن أنسى يومًا أنهم قتلة أخي الشهيد أنور وآلاف غيره، في الحروب الممتدة بلا توقف بين عامي ١٩٤٨ و١٩٧٣، لا يتناقض هذا الموقف الراسخ مع إيماني بأن السلام ضروري وفق المتاح لنا من أدوات التفاوض، وقد ولدت إسرائيل لكي تبقى بضمان ومباركة الدول العظمى، والحل العسكري ليس مطروحًا. ليكن السلام العادل، أو شبه العادل، الذي يمنح الشعب الفلسطيني دولته، والمهم في المرحلة الراهنة أن يتحد الفلسطينيون أولاً.

أتساءل: هل يمكن أن تنعم مصر بنظام ديمقراطي مستقر عادل في ظل التطرف الديني المفضي إلى الإرهاب الدموي؟!. السؤال معروف الإجابة بطبيعة الحال، والسياسة المتبعة في التعامل مع الفكر المتطرف لن تصل بنا في القريب العاجل إلى محاصرة الظاهرة المرعبة. التعصب قائم لا تخطئه العين، والمؤسسة الدينية الرسمية لا تملك مؤهلات المواجهة والتصدي

والانتصار. الإعلام، الرسمي منه والخاص، يلعب دورًا سلبيًا في تشكيل الوعي، والتعليم متدهور متخلف وفق المقاييس العالمية، والفن لا يؤدي رسالته المنشودة، والأزمة الاقتصادية تستفحل كل يوم، فأي معنى للحديث عن الديمقراطية في أجواء كهذه؟!. تجربة السنة الإخوانية، حكم مرسي وعصابته، كفيلة باكتساب الوعي، لكنني أرصد إعادة إنتاج السياسة القديمة التي تتوهم أن التوازنات الهشة هي الحل، وأن التلويح بالمخاطر الكارثية التي تقترن بتنظيمات الإسلام السياسي تبرر التغاضي عن أخطاء وخطايا بالغة الخطورة، في مقدمتها تغول الأمن وتراجع هامش الحريات وازدهار الفساد وتصاعد معدلات البطالة. لا أريد أن أبدو كمن يدافعون عن نظام الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك، لكن سائق سيارتي يجاهر أمامي بأن أيام مبارك هي الأفضل مقارنة بما نعيشه بعد سقوط نظامه، ويدلل على ذلك بأن ثلاثة من أبنائه العاملين في قطاع السياحة فقدوا وظائفهم بعد يناير ٢٠١١، فكيف له ولهم أن يمجدوا ثورة يناير وهذه هي نتائجها المباشرة الملموسة؟!.

ثقتي بلا حدود في الرئيس البطل عبدالفتاح السيسي، وسيذكر له التاريخ أنه صاحب الفضل الأكبر في إسقاط الطاعون الإخواني، وفي الحفاظ على الهوية المصرية من السقوط. إنه يعمل في إصرار ودأب وسط عواصف عاتية ومؤامرات داخلية وخارجية بالغة الدهاء، وبفضل حكمته ووطنيته سنعبر الأزمة ونبدأ رحلة الصعود إلى المكانة التي تستحقها مصر. المأمول أن يعي

الشباب حقيقة الأوضاع التي نعيشها، وألا يسقطوا في شرك المضللين من أصحاب الشعارات الكاذبة التي قد تبدو في ظاهرها الحق، لكنها في حقيقة الأمر تتضمن السم الزعاف في العسل طيب المذاق، والهدف من ورائها إسقاط الدولة والإطاحة بالاستقرار.

بكل الحزن والأسى والحسرة، مسكونة بالألم والفجيعة والغضب، أقول إن المجتمع المصري يعيش مرحلة من الانهيار الأخلاقي غير المسبوق. لغة الحوار متدنية جدًا، والألفاظ البذيئة شائعة منتشرة كأنها القاعدة لا الاستثناء. والمؤسف بحق أنها لم تعد تثير الدهشة. المرور فوضوي مرتبك، والنظافة غائبة عن شوارعنا، والملابس خليط منفر يعبر عمليًا عن سيطرة العشوائية وهبوط الذوق والإحساس بالجمال إلى الحضيض. كيف وصلنا إلى هذا المصير المؤلم التعيس؟. المِسألة في رأيي معقدة، وأسبابها متنوعة متداخلة، وليس أخطر من التبسيط الساذج بالقول إن نظام مبارك الفاسد هو المسئول. الأزمة التي نعيشها ذات جذور تاريخية أعمق، والانهيار الكارثي المدوي على هذا النحو لا يمكن أن يتحقق في عقدين أو ثلاثة.

في قاموس حياتنا اليومية المعاصرة، تنتشر كلمات ومصطلحات لم يكن لنا عهد بها من قبل، مثل التحرش والاغتصاب وزواج القاصرات وزنا المحارم، فضلاً عن شيوع الزواج العرفي وأنماط غريبة من الزواج العبثي، مثل زواج الشفاه وزواج الدم وغير ذلك من الاختراعات. في شبابي، كانت أساليب الغزل عفيفة تخلو من الابتذال والبذاءة والإسفاف، وقد كنت وبنات جيلي نلبس

الميني والميكرو فلا يُقال إننا منحرفات فاسدات، وفي شهور المصيف تنتشر المايوهات بمختلف أشكالها فلا تتعرض واحدة لاعتداء أو مضايقة، فكيف يزعمون الآن أن ملابس النساء والفتيات هي المسئولة عن التحرش بهن؟. ما أكثر المحجبات والمتنقبات اللاتي تتعرضن للتحرش والاغتصاب والاختطاف، فأي شيء يثير المغتصب في ملابسهن المحتشمة المحافظة؟. عندما تتعرض طفلة في العاشرة لمصير كهذا، ولا تنجو منه نساء عبرن الستين من أعمارهن، فهل يكمن السبب في أنوثة الطفلة أو إغراء عجوز في مقام الأم والجدة؟!.

ظاهرة العنوسة، في عالمي الرجال والنساء على حد سواء، تتحول إلى ما يشبه الكارثة القومية وخيمة العواقب، وتعبر عمليًا عن المدى الذي يصل إليه التدهور الاقتصادي فيحول دون الشباب من الجنسين والتمتع بحقهم المشروع في ممارسة الحياة الطبيعية المشبعة، بل إن كثيرًا من الذين يفلحون في الزواج بعد معاناة قاسية وصبر طويل، يصلون سريعًا إلى محطة الطلاق. الفقر يعرقل الاستقرار الزوجي ويدمره، وعلى الذين يحاربون انتشار الدعارة والشذوذ الجنسي ورواج المخدرات بأنواعها أن ينتبهوا إلى المنظومة الكاملة، ذلك أن الأمور مترابطة ولا يسهل علاج جزء فاسد بمعزل عن التأمل في مجمل اللوحة الكابوسية وثيقة الصلة بالفقر والبطالة وصعوبة العثور على مسكن. الأزمة قومية شاملة، لها أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية، ولا مواجهة حقيقية جادة تقترب بنا من

العلاج الناجع إلا في إطار الوعي الصحيح بالمكونات جميعًا، ثم العمل بجدية في كل الجبهات.

ماذا عني؟!. إنني أعمل قدر طاقتي وفي حدود المتاح لي من إمكانات، لأسهم في خدمة وطني وأبناء شعبي. أؤدي واجبي الاجتماعي عبر عدد من الجمعيات، وأشارك في الأعمال الإنسانية دون ضجيج. لا أستطيع الحديث تفصيلاً عن كل ما أقوم به، فالله وحده من يعلم أنني لا أنشغل بغيره، ولا أبحث عن شهرة أو دعاية، فقد وصلت قبل سنوات طوال إلى الزهد والتشبع.

أدعو الله أن يمتد بي العمر لأرى مصر العظيمة وهي تستعيد قوتها وعافيتها، وعندئذ تعود بسمات الثقة والأمل والتفاؤل لتغمر الوجوه المرهقة المتعبة.

.....

والله يا مختار حكايتي مع الصحافة والإعلام دي حكاية طويلة تتغنى ع الربابة.. الجرايد هي السبب إني بقيت رقاصة وممثلة قد الدنيا.. قولتلي ازاي.. لما كنت موظفة في وزارة الصحة.. من غير شغلة ولا مشغلة.. ما كنش فيه حاجة أضيع بيها وقتي غير قراية الجرايد والمجلات.. كان ساعتها مصر فيها تلات جرايد وخمس ست مجلات.. فيه ناس من الموظفين معايا كانوا غاويين الأهرام.. وناس تانية بتحب الأخبار والجمهورية.. وواحد ولا اتنين ما يقروش غير روز اليوسف وصباح الخير.. أنا عن نفسي كان يوماتي أقرا الأخبار.. جرنان حلو ودمه خفيف..

يوم كده قاعدة أقلب فيه لقيت إعلان.. طالبين وجوه جديدة تمثل وكاتبين العنوان.. رحت قدمت وربنا كرمني.. يعني تقدر تقول الجرانين صاحبة فضل عليا.. تصدق بالله يا أستاذ؟.. قول لا إله إلا الله.. أول صورة اتنشرت لي في الجرنان كنت ها أطير من الفرح.. وأبويا الله يرحمه برضه كان فرحان.. بس خفت أوريها لأمي.. ما كنتش تعرف إني بأرقص في الهرم.. لا.. ما كانش جرنان مصري.. دي مجلة في لبنان.. مش فاكرة الشبكة ولا الموعد.. كانت صورة كبيرة ببدلة الرقص.. وتحتها كلمتين حلوين كده.. عرفت من رياض إن هو اللي نشر الصورة وإن الصحفي صاحبه وبينهم شغل.. الكلام ده فات عليه أكتر من أربعين سنة.. في السنين دي عرفت صحفيين بعدد شعر راسي.. فيهم وفيهم.. بس معظمهم بصراحة ناس كويسين وطيبين.. يعني هم كدابين شوية.. ويعملوا م الحبة قبة.. وياما نشروا عني كلام فاضي وما حصلش..

جواز وحب وطلاق وإشاعات.. عقود أفلام عمري ما سمعت عنها.. أهو كلام والسلام.. لما عملت أول فيلم اتنشر عني كتير من فلوس الدعاية.. أفتح الجرنان ألاقي حديث مع واحد عمري ما شفته.. وبيقول على لساني كلام ما أعرفش جابه منين.. لكن فيه واحد غريب كده كتب يشتمني.. في الجمهورية أظن ولا المسا مش فاكرة.. ييجي نص صفحة مليانة شتيمة.. كلام مجعلص كده عن أفلام المقاولات وزمن الرقاصات وحاجات كده يعني.. وقال إيه يا سيدي.. بيحذر من الخراب اللي ها يدمر السيما.. خراب ايه الشر بره وبعيد؟.. الله يسامحه بقى.. أهو كلام ابن عم حديت.. لا يودي ولا يجيب.. أنا عارفة يا سي الأستاذ مختار إنك صحفي قد الدنيا.. اوعى تزعل مني ولا تاخد على خاطرك.. انت ابن كار وعارف إن ليك زمايل أولاد ستين في سبعين.. وطبعًا صوابعك مش زي بعضها..

تصدق؟.. كان فيهم اللي بيريل على عشوة ولا قزازة ويسكي.. وفيهم اللي يميل عليك ويطلب مية جنيه سلف. طبعًا السلف تلف والرد خسارة.. حسب الهدية بقى يكتب.. يووووه.. ياما في الجراب يا حاوي.. ياما شفت أشكال.. بس ربنا أمر بالستر.. طب ورحمة أبويا يا شيخ.. وحياة العيش والملح اللي بينا.. مرة واحد فيهم قالي كده على عينك يا تاجر.. بالمفتشر.. إنه عايز ينام معايا ويطلعني السما.. الأكادة يا أخي كان عارف إني متجوزة ومماليش في سكة الحرام.. يومها قلت له طلعت روحك يا ابن الكلب يا واطي.. وميلت أرفع عليه الجزمة أم كعب.. جرى زي العيال.. وبعد يومين تلاتة لقيته بيردحلي في

الجرنان بتاعه.. وقال إني بأعمل أفلام هابطة زي أفلام البورنو.. سألت أولاد الحلال وعرفت إن البورنو دي زي ما أنت عارف طبعًا.. أفلام قلة أدب يعني.. مع إن الفيلم اللي عليه الكلام ما كانش كده خالص.. الكداب ابن الكدابين عمل فيها شيخ الإسلام.. ولو نمت معاه في الحرام كان قال إني رابعة العدوية.. يا سيدي.. ربك ع المفتري.. سيب الملك للمالك.. كل شغلانة فيها الحلو والردي.. اللي بيدور على أكل عيشه واللي يحلم بالبقلاوة..

هي الدنيا كده.. أوعى تفتكر إني ما عرفتش غير الصحفيين بتوع الفن بس.. لا.. عرفت كتير قوي غيرهم.. الشيخ عبدالله كان ليه أصحاب صحفيين كتير قوي.. بيزوروه ويحكوا معاه.. أولاد ناس بصحيح ومؤدبين.. والحاج صلاح عرام كان يعرف كتير قوي من بتوع الجرانين.. بيقولي إنهم شغالين عنده وبيدفعلهم مرتبات شهري.. ياما كتبوا إنه راجل وطني وبيبني الاقتصاد وحاجات من دي.. لكن اول ما طب ولبس قضايا قلبوا عليه وطلعوا فيه القطط الفطسانة.. قالوا إنه حرامي ونصاب وبتاع التلات ورقات.. تعرف إن الحاج كلم واحد منهم فطلعني في التليفزيون.. دي كانت أول مرة.. سنة خمسة وتمانين ولا ستة وتمانين.. الراجل ده كان صحفي ومذيع مع بعض.. ويلعب بالبيضة والحجر.. طلعت في البرنامج بتاعه نص ساعة.. حسيت بعديها إن مصر كلها عارفاني. لما اخترعوا الدش بقى والقنوات كترت وبقت زي الرز.. كنت بأطلع كتير قوي.. بس الدنيا حظوظ بقى.. يعني ربنا ما كرمنيش زي فيفي عبده ولوسي ودينا.. لا.. على قدي كده..

كل واحد بياخد نصيبه يا مختار يا حبيبي.. وعلى رأي الأغنية اللي أبويا كان بيدندن بيها دايمًا.. لما يزود في الشرب.. نصيبك في الحياة لازم يصيبك.. أنا بقالي ييجي عشر سنين بعيدة عن الدنيا دي.. لا جرايد ولا تليفزيون.. لما عملت أول عمرة ورجعت.. لقيت واحد صحفي مشهور.. وبيعمل برامج في التليفزيون برضه.. نشر لي صورتين كبار في الجرنان بتاعه.. جنب بعض.. واحدة ببدلة الرقص وتانية بلبس الإحرام.. كتب تحتهم كلمة واحدة بالبنط العريض.. عجبي.. قصده ايه يعني؟.. يا أخي ربك رب قلوب.. أستغفر الله العظيم.. هو يعني كان دخل جوايا وقرا اللي في ضميري.. أعوذ بالله يا أخي.. والله دي عالم زباله فعلا.. زبالة بجد..

الفصل السابع: حكايتي مع الإعلام

تعود بداية علاقتي مع الصحافة إلى سنوات الطفولة، حيث المواظبة على قراءة مجلتي "ميكي" و"سمير"، ومناقشة ما فيهما من قصص مع أمي وأخي أنور، ثم الانتقال في مرحلة تالية إلى قراءة الصحف اليومية التي كان أبي يعود بها من العمل بعد ظهيرة كل يوم، فضلاً عن المجلات الأسبوعية الأكثر شهرة وانتشارًا: "المصور" و"روز اليوسف" و"صباح الخير" و"الكواكب" و"آخر ساعة" و"حواء". أما المجلات الشهرية ثقيلة الوزن فكنت أراها ولا أقترب منها، فالمواد المنشورة في "الهلال" و"المجلة" و"الكاتب" و"الطليعة" صعبة عصية الفهم، لم أفلح في التواصل معها إلا قرب نهاية المرحلة الثانوية.

من حكايات أبي بعد رحيل عبدالناصر، ودراستي للتاريخ عند التحاقي بكلية الآداب، أستطيع القول إن الصحافة المصرية قد عانت وتدهورت كثيرًا في العهد الناصري، ومرد ذلك إلى القيود الشديدة المفروضة على حرية التعبير، ولاشك أن غياب حرية الصحافة أحد أهم الأسباب التي أفضت إلى هزيمة يونيه ١٩٦٧، فلم يكن هناك من ينبه إلى الأخطار ويكشف عن طوفان الأخطاء والتجاوزات. مع قانون تنظيم الصحافة، والتنظيم كلمة التدليل للتأميم، تبدأ المحنة التي تزداد تعقيدًا بمرور السنوات، ولا أظن أن الصحافة الآن أفضل حالاً، على الرغم من الظاهر التي يوحي بمزيد من الحرية.

مع احترافي للفن، رقصًا وتمثيلاً، تبدأ علاقتي الشخصية المباشرة مع الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى، ولن أنسى ما حييت سعادتي الطاغية بأول خبر يُنشر عني مصحوبًا بصورة كبيرة ملونة في إحدى المجلات اللبنانية. مع تزايد شهرتي ونجوميتي، تحول نشر الأخبار والحوارات والصور إلى عادة شبه يومية، لكنني لم أحرص على الاحتفاظ بأرشيف يضم الكثير الذي كُتب عني خيرًا أو شرًا. لم أفكر يومًا في الرد على بعض الإساءات غير المقبولة، أما النصيحة التي تلقيتها من بعض الأصدقاء المقربين المخلصين لرفع قضية تشهير ضد أحد الصحفيين الذي كتب عن أحد أفلامي أنه تحريض على الدعارة، فقد رفضتها بلا تردد. على الشخصيات العامة أن تتحمل ما يُوجه إليها من نقد مهما يقسو ويتطرف، والعقوبة المستحقة لأمثال هذا الصحفي غير المهني تتمثل في عذاب الضمير الذي لابد سيطوله، فهو يكذب ويعرف أنه يكذب، ولم يكن ما كتبه من افتراء إلا رد فعل موتور بعد ان رفضت ابتزازه.

لقد صادفت في حياتي أنماطًا شتى من الصحفيين والإعلاميين، وبحكم تجربتي الطويلة لا أميل إلى المبالغة والتهويل في إصدار الأحكام، وأتجنب الإسراف في الإشادة بهم أو التحامل عليهم. مثل كل المهن الأخرى، الطب والهندسة والمحاماة والفن والتعليم والتجارة، يجمع الوسط الإعلامي بين الصالحين والطالحين، وتنتمي الأغلبية العظمى إلى المنطقة الوسطى حيث خليط الخير والشر. لا يتورع بعضهم عن الكذب والاختلاق والبحث عن الإثارة بكل السبل دون موضوعية، ويلتزم آخرون لا يقلون عددًا بالقواعد

والأصول والآداب المهنية. لكي أكون صادقة محايدة في شهادتي، أعترف بأن بعض المحسوبين على الساحة الفنية هم الذين يصنعون الفساد بسلوكهم غير السوي، كأن يسعون إلى تشويه زملائهم والتشهير بهم، ولا يتورعون عن إشاعة حكايات النميمة المليئة بالافتراء والتضليل. أعود لأكرر وأؤكد أن الفنان شخصية عامة تتمتع بالشهرة وتحظى بالاهتمام، وينبغي أن يتحمل كل ما يُقال عنه بلا تذمر أو انفلات عصبي، فهذه ضريبة منطقية متوقعة للنجاح وذيوع الصيت. يهتم العاديون من الناس بقراءة ومتابعة تحركات وأخبار الفنانين، وينشغلون كثيرًا بزواجهم وطلاقهم وما يُنسب إليهم من قصص الحب والخيانة. هكذا الأمر في العالم كله، فلا وجود للخصوصية بالمعنى الشائع للكلمة. الوجبة المفضلة عند فنان شهير أو لاعب كرة مادة صحفية مثيرة، لكن الفضول المتطرف يصنع قلقًا وتوترًا. من حقي أن أحب وأتزوج وأعيش حياة هادئة، وقد لا أُوفق في زواجي وينتهي الأمر بالطلاق، فلماذا الإلحاح المزعج والبحث عن أسباب ودوافع خارقة لا موضع لها تبرر الزواج والطلاق؟. لي تجارب وذكريات مريرة مع الصحف والمجلات العربية، اللبنانية تحديدًا، ولا أنسى حملات الهجوم الضاري التي تعرضت لها على صفحات مجلة لبنانية فنية شهيرة، لا يعرف قراؤها أن رئيس تحريرها كان صديقًا لزوجي المخرج السينمائي الكبير المرحوم جمال أنور، وكانا أيضًا شركاء تجمعهما مصالح اقتصادية. اختلفا كما يحدث كثيرًا بين الأصدقاء والشركاء، وإذا بي أتحول إلى هدف للانتقام، والمؤسف أن الهجوم العنيف لم يتوقف عند حدود المعقول. أذكر ما قاله عن أنني ممثلة مغمورة فاشلة تمثل بنقود

ونفوذ زوجها، وقال أيضًا إنني مغرورة متغطرسة بلا موهبة. أستطيع تفهم مقولات كهذه والتسامح معها، ولكن الفجر في الخصومة يصل إلى نشر أخبار مسيئة مشينة تشير إلى أول حرفين من اسمي ولقبي: ل.ف، ويقول إنني أضرب زوجي وأخونه. المثير للدهشة أنه تصالح مع زوجي فيما بعد، وتوهم أنه قد يرضيني بست صفحات في مجلته، يزعم فيها أنني راقصة مصر الأولى والممثلة الأعظم والأكثر جماهيرية في القرن العشرين!.

حظي بالغ السوء مع النقاد السينمائيين الذين يكتبون في الصحف والمجلات، العامة والمتخصصة. اتفقوا جميعًا، بلا اتفاق، على أن يكون موقفهم مني موزعًا بين توجهين: الإهمال الكامل كأنني لم اقدم فيلمًا واحدًا يستدعي الاهتمام، والهجوم الشرس الذي لا يرى عنصرًا إيجابيًا واحدًا في جملة الأفلام التي قدمتها. لاشك في احترامي غير المحدود لحرية الرأي، لكنني أتساءل كثيرًا: كيف يهاجمني أحدهم لأنني كما يقول من مؤسسي سينما المقاولات التي تدمر الفن والقيم، ثم يكتب في العدد التالي من المجلة مشيدًا بزميلة تقدم أفلامًا مشابهة؟!. لا أريد أن أصدق ما يُقال عن أن موقفه المتناقض هذا مدفوع الأجر، لكنني لا أجد سببًا آخر. لست راضية عن كل أفلامي بطبيعة الحال، لكنني قدمت في رحلتي الفنية الطويلة أعمالاً هادفة ذات قيمة، تعرضت بدورها للتجاهل واللامبالاة، بل كتب الناقد نفسه أن السينما لا ينبغي أن تقوم بدور الواعظ الذي يحض على الفضيلة ومكارم الأخلاق!. مع ظهور الفضائيات وانتشارها، تحولت إلى الأداة الأكثر أهمية في

صناعة الشهرة والتأثير على الرأي العام، وقد سعت قنوات عديدة لاستضافتي استثمارًا للشهرة التي أتمتع بها. كانت البرامج التي أظهر فيها تحقق نسبة المشاهدة الأعلى، وتجلب إيرادات هائلة من الإعلانات، لكنني لم أفكر يومًا في المقابل المادي الذي أحصل عليه، ولم أفرض شروطي كما يفعل غيري من النجوم الأقل شهرة. ما يؤلمني بحق هو ما تعرضت له من خداع في برنامج ذي طابع فضائحي، يُذاع على الهواء مباشرة. فوجئت بتقرير يتضمن هجومًا جارحًا، ثم توالت الاتصالات الهاتفية المرتبة التي تنتقص من شأني، وكان مقدم البرنامج مستفزًا بدوره في الأسئلة الاتهامية كأنه يحرضني على الانسحاب ليحقق مزيدًا من النجاح. تحاملت على نفسي حتى نهاية الحلقة، ثم غادرت الأستوديو عازمة على ألا أكرر التجربة، وبعد شهور قررت الاعتزال النهائي والبحث عن حياة هادئة بلا ضجيج. انقطعت كل صلة تربطني بالقنوات الفضائية على الرغم من الدعوت الكثيرة التي تتضمن عروضًا مالية مرتفعة، بل إن إحدى القنوات الجديدة قد حاولت أن تتفاوض معي لأحكي عن مشوار حياتي في ثلاثين حلقة، وقدموا لي شيكًا على بياض لأكتب المبلغ الذي يرضيني، لكنني رفضت بلا ذرة من التردد. عندي ما يكفيني ويغنيني، ولا غاية لي أو هدف إلا الابتعاد عن الضجيج والمناخ السيء.

أحمل للصحافة والقنوات الفضائية كثيرًا من الذكريات الإيجابية والسلبية، لكنني لا أشعر بشيء من المرارة الحارقة عندما أستعيد شريط حياتي. ظُلمت كثيرًا بلا مبرر مقنع، وأساء لي الكثيرون عن قناعة ربما، أو بحثًا عن الشهرة،

لكن القانون العام الذي أؤمن به دائمًا هو الذي يعينني على التحمل والاستمرار في الحياة بلا ضغينة: لا يحق للشخصية العامة أن تغضب من النقد وتضيق به، وإذا كان الأمر يتضمن تجاوزًا فلابد من التغاضي واللامبالاة. عشت لأرى نهضة "كمية" لا يمكن إنكارها في الإعلام المصري، فمن ثلاث صحف يومية متشابهة إلى عدد لا يحصى من الإصدارات، ومن قناتين تليفزيونيتين ينتهي إرسالهما قبل منتصف الليل إلى مئات القنوات الفضائية التي تبث آلافًا من ساعات الإرسال ليلاً ونهارًا. لكل مرحلة إيجابياتها وسلبياتها، والتوسع الكمي الهائل بلا كفاءة حقيقية لا يعني النجاح والقدرة على التأثير. إنني أتابع الكثير من القنوات على مدار اليوم، وأنفر من برامج "التوك شو" التي تبحث عن كل مثير زاعق بلا تمييز أو إحساس بالمسئولية الوطنية والاجتماعية، وكم أشعر بالاستياء والتقزز من بعض مقدمي البرامج، الذين يفتقدون الحد الأدنى من أبجديات العمل الإعلامي المحترم.

من ناحية أخرى، تتراجع الصحافة في العالم كله وليس في مصر وحدها، والثورة الاتصالية تجعل البطولة لكل ما هو ألكتروني ذي إيقاع سريع. لا أتقن التقنيات الحديثة، ربما لأنني من جيل مختلف، واتمنى أن يتحقق التوازن بين الورقي والجديد الوافد المسيطر، لكنني لا أعرف كيف يتحقق هذا التوازن.

.....

ماشي الحال يا أستاذ مختار.. كلام موزون زي الفل ويعمر الدماغ.. روح يا شيخ.. ربنا يديك على قد نيتك.. والنبي أنا حاسة إن الكتاب ده هايكسر الدنيا ويعمل غاغة.. بعون الله نعمله فيلم ولا مسلسل.. ويكون ليك فيه لقمة عيش برضه..

احنا قربنا نخلص.. مش كده؟.. يعني الفصل بتاع النهاردة آخر حاجة قبل ما نشطب ونقول سلامو عليكو.. الترتيب بتاعك حلو تمام التمام.. بس لا مؤاخذه يعني.. هو لازم أتكلم عن أهم عشر بني آدمين في حياتي؟.. لازم عشرة يعني؟.. طب دي نعملها ازاي؟.. ما يمكن يطلعوا أكتر ولا أقل.. خليها على الله.. العدد في الليمون.. زي ما تطلع بقى.. ايه رأيك؟.. على بركة الله..

شوف يا سيدي.. عندك أبويا وأمي وأخويا.. دول تلاتة.. وأول بختي المرحوم رياض.. ومعاه الشيخ عبدالله والحاج صلاح وسي صفوت اللي اتخطف قبل الأوان.. أربعة وتلاتة يبقوا كام؟.. سبعة.. حط عليهم بقى الأستاذ عبدالرحيم المحامي.. يبقوا تمانية.. كده رضا ومجبورة.. ودين النبي هم دول الناس المهمين قوي في حياتي.. بالخير والشر.. بس كمان نفسي أقول عنك كلمتين يا مختار.. لا والله مش مجاملة.. انت بني آدم كويس وقلبي انفتح لك من أول مرة شفتك فيها.. ربنا يديم المعروف.. تسعة.. دي إرادة ربنا بقى.. يعني عشرة إلا واحد..

أبويا الله يرحمه.. هو اللي لازم نبتدي بيه.. اسمه عبدالصبور شحاتة.. موظف صغير على قد حاله في وزارة الصحة.. كان راجل طيب قوي وحنين.. مالوش أسية على حد.. هو وأمي مقطوعين من شجرة.. مش ها أخبي عليك.. كان بتاع كوباية وسُكري.. عمره ما صلى ولا صام.. دي إرادة ربنا.. لكن قلبه زي اللبن الحليب.. عمره ما يشيل من حد ولا يبات شايل هم.. كان رامي حموله على المولى الكريم.. ويصلي الجمعة ضروري في أم هاشم.. ربنا يرحمه بقى ويغفر له.. من البيت للشغل.. يرجع الضهر ينام ساعتين وينزل على القهوة شوية.. يرجع نتعشى مع بعضنا.. لما وعيت ع الدنيا كان بيشرب في البيت.. بطل يروح الخمارات بتاع العتبة والألفي عشان الشرب في البيت أرخص..

حياته كانت بسيطة قوي.. يحب المغنى والفرفشة والضحك.. ويروح يتفرج على ماتشات الأهلي في كل حتة.. ويموت في حاجة اسمها رفعت الفناجيلي.. الحاجة الوحيدة اللي كانت معكننة عليه أخويا أنور.. نقار ليل نهار.. ولما أخويا اتطوع في الجيش اتحلت المشكلة.. لكن اللي ربنا كان مقدره كان.. لما بلغه الخبر حسيت إنه بيموت قدام عينيا.. الحكاية مش في العياط.. لا.. المصيبة إنه كتم جواه.. ولما أمي حصلت أخويا قفلت معاه.. يقعد يشرب ويسمع الست ليلى مراد.. ومرة كان بيسمع الست أم كلثوم وهي بتقول.. حطيت على القلب ايدي.. وأنا بأودع وحيدي.. وراح في العياط.. وأنا كمان يا مختار اتشنجت.. كام شهر وحصلهم.. الله يرحمه كان دايمًا يقولي إن الرقص

زي أي شغلانة تانية.. واللي عايزة تحافظ على نفسها مش هاتغلب.. لما وافق على جوازتي من رياض كانت نيته سليمة.. وبيني وبينك الحكاية كلها قسمة ونصيب.. دا مقدر ومكتوب.. وعلى رأي المثل.. المكتوب على الجبين.. لازم تشوفه العين.. أمي كان اسمها زكية عبدالستار.. الكدب على الله خيبة.. مش متعلمة ولا معاها ابتدائية زي أبويا.. يا دوبك تعرف تقرا وتكتب.. وتموت في مجلة الكواكب.. لما دخل التليفزيون بيتنا كانت ما تقمش من قدامه.. كانت في سن أبويا.. ويمكن أكبر منه شوية.. ما أعرفش اتجوزوا ازاي.. ولما أسأل حد فيهم يقولي قسمة ونصيب.. اللي عرفته إنها اشتغلت شوية في صالة الست بديعة مصابني.. رقص ومغنى.. شافت هناك إسماعيل ياسين ومحمد فوزي وعبدالمطلب.. بس هي بطلت الشغل بدري واتجوزت أبويا.. أنا ورثت منها الجسم اللي زي الملبن.. وصوتها لما تغني كان حلو قوي.. احنا كنا عايشين في حارة صحيح.. والشقة صغيرة قوي صحيح. لكن الله يرحمها كانت مخلياها جنة.. وكمان كانت معتنية بنفسها قوي.. تستحمى كل يوم وتتعطر.. وطبيخها زي العسل.. زعلها قريب.. وتنسى على طول.. فرحت قوي لما أنور اتطوع في الجيش.. وقالتلي النكد هايروح خلاص يا ليلى.. كانت فرحانة قوي إن ربنا هداه وساب الشلة الفسدانة..

تصدق بالله يا مختار.. بدأت تدور له على عروسة وتحلم تشوف ولاده.. إرادة ربنا بقى.. لما حصل اللي حصل ما استحملتش.. قلبها اتفرتك يا حبة عيني.. الضنا غالي وفراقه صعب.. حصلته في جمعتها.. ماتت من غير ما تعرف إني

بأرقص في الهرم.. أبويا كان مخبي عليها.. وأنا فهمتها إني باشتغل في حسابات مستشفى.. الفاتحة إن ربنا يرحمها ويحسن إليها.. كانت طيبة قوي وزي العيال.. تبرطم شوية وتنزل على ما فيش.. ولا الضالين.. آمين.. الله يرحمه أخويا أنور بقى.. ده حكاية لوحده.. كان أكبر مني بسنتين.. ومن صغره لعبي قوي.. سقط سنتين في الابتدائية.. وسقط كمان في الإعدادية.. خد الإعدادية بعد مني بالعافية.. قبل ما يكمل تلاتاشر سنة كان بيشرب سجاير..

اتلم على شلة عيال فسدانين أكبر منه.. يروح معاهم السيما يوماتي.. يلعب كورة ويحلم يبقى لعيب في الأهلي.. مع الشيخ طه والشربيني ورفعت الفناجيلي.. شوية بشوية بدأ يعلي صوته على أمي ويحجر مع أبويا.. النكد ولع في البيت زي حريقة من غير مطافي.. المصيبة الكبيرة لما غطس مرة واحدة.. وبات بره البيت.. أمي كانت هاتتعفرت.. وأبويا دور عليه في كل حتة.. سادس ولا سابع يوم رجع وقال إنه اتطوع في الجيش.. أبويا شتمه وبهدله.. أنور كان وحداني ومعفي من التجنيد.. أيامها كان فيه ناس مستعدة تدفع ألوفات عشان تاخد اعفا لولادها.. في الآخر أبويا زعق فيه وقاله روح في ستين داهية.. أنا رميت طوبتك خلاص..

لكن تصدق بالله يا مختار.. قول لا إله إلا الله.. حاله اتعدل بعد ما اتطوع.. بقى بني آدم تاني.. شهم وجدع وحنين.. الكلام ده كان سنة تمانية وستين ولا تسعة وستين.. من أول قبضية جاب هدايا لأبويا وأمي.. ومن القبضية التانية اشترى لي بالطو شيك قوي.. الله يرحمه كان بيحبني زي عينيه..

في أجازاته يقعد معانا وما يسهرش مع الشلة الفسدانة.. لكن أمر الله بقى.. قبل الحرب ما تخلص بكام يوم كده حصل اللي حصل.. أمي اتقهرت عليه وماتت.. وأبويا حصلها بعد كام شهر.. والله ما بيعدي يوم إلا لما أقراله الفاتحة.. الله يرحمه ويرحم أموات المسلمين.. التلاتة دول يا مختار هم أهلي.. بعد ما راحوا ماعدش ليا حد.. طبعًا باحيهم وها أفضل أحيهم وأدعي ربنا يرحمهم برحمته لغاية ما أموت.. لكن فيه ناس تانين مهمين في حياتي.. بيروحوا وبيجوا.. ممكن الحب يقلب بكراهية.. وبعدين كل حاجة تبرد..

أي واحد اتجوزته وعشت معاه لازم يكون ساب أثر في حياتي.. خير ولا شر.. رياض كان أول بختي.. قابلته عشان أشتغل في السيما وجه جديد زي ما مكتوب في الإعلان.. شوية بشوية الحكاية قلبت بجواز.. فرق السن بينا كان كبير قوي.. والحكاية فيها مصلحة.. ما أنكرش إنه ساعدني وحطني على أول السلم.. لكن الله يرحمه بقى كل عرقي.. وفي الآخر قلبت بغيرة وشك وقلة قيمة.. يمكن لأنه كان حاسس دايمًا إنه مش مالي عيني..

بيني وبينك ما كانش جامد ومتين ع السرير.. الخمرة والحشيش هدوا حيله.. هو كان فاكر إنهم ينفعوا.. كمان القمار لحس مخه.. لما مد ايده عليا عرفت إن عيشنا مع بعض وقف عند كده.. اتطلقنا بعد ما عصلج وركب دماغه شوية.. عبدالفتاح بيه صاحب الكازينو ضغط عليه.. يظهر كان ماسك عليه حاجة وكاسر عينه.. بعد الطلاق بقى بالنسبة لي راجل غريب.. لكن لأني

أصيلة وجدعة وبنت ناس.. وقفت معاه في العيا الشديد اللي مات بيه..ما تجوزش عليه دلوقتي غير الرحمة..

لو حبيت أكلمك عن الشيخ عبدالله مش هاأعرف أبطل كلام.. الراجل ده كان مليونير مليان من البحرين.. يتكلم ويلبس زي المصاروة تمام.. أصلة أتعلم في الجامعة هنا وعاش في مصر كتير.. كان بيموت في حاجة اسمها مصر.. ويقولي العرب من غيرها ولا ليهم قيمة.. بيني وبينك لما عرفته كان ممكن أمشي معاه من غير جواز.. هو اللي صمم على الجواز.. كان رأيه إن اللي يمشي مع واحدة من غير جواز يبقى ما عندوش أخلاق.. مش حكاية حرام وحلال.. لا.. المبدأ بتاعه كده.. اتجوزنا ييجي سنة ولا سنة وكام شهر.. يصلي ويصوم صحيح.. لكن يشرب خمرة بعمره ويقول إنها مش حرام..

لغاية النهاردة ما أعرفش يعني ايه شيعي.. مع إنه كلمني في الموضوع ده كتير.. تصدق كان عنده صورة لسيدنا الحسين؟.. القصر بتاعه في الهرم ما يتوصفش.. هو اتهد وطلعت مكانة عمارات.. كان فيه جنينة كبيرة قوي.. وفيه أوده تطلع ميتين متر مليانة كتب.. واصحابه المصريين كتير ويزوروه ليلاتي.. ناس مؤدبين ومحترمين.. عمري ما شفت حد حنين وكريم زي الشيخ عبدالله.. وطلاقنا مالوش مثيل.. طلاق هادي قوي.. عطاني فلوس كتير وقالي إنه مضطر يرجع بلده ومش عارف ظروفه ايه.. فات دلوقتي تلاتين سنة ما سمعتش عنه.. الله أعلم عايش ولا ميت.. لو عايش يبقى داخل ع التسعين.. حي ولا ميت الله يرحمه.. ما هو الرحمة تجوز ع الميت والحي..

الحاج صلاح عرام كان عكسه على طول الخط.. لكن لو هاأعد الناس المهمين في حياتي لازم أقف عنده.. دقنه قدامه شبرين وما يفوتش فرض ويحج كل سنة.. وطول النهار والليل قال الله وقال الرسول.. لكنه حلنجي ونصاب وكداب وذمته واسعة ولسانه زفر وايده طويلة.. ما عندوش رحمة ومؤذي.. جوازنا زي ما يكون بيشتري عربية دخلت مزاجه.. ولا بيت حلو عجبه.. جواز شرعي على سنة الله ورسوله.. بس عامل زي ما يكون عقد بيع وشرا.. اتفقنا بسرعة.. ودفع كتير.. عاند شوية لما صممت إني أكمل رقص.. قلتله إن الجوازة سرية وما حدش يعرفها.. أبطل ليه بقى؟..

دفعلي فلوس زي الرز.. وجابلي كل اللي نفسي فيه.. الغريبة إنه كان حشاش قراري وبيقول نكت قبيحة.. الغريبة يا مختار إنه يجبلي هدية دهب بعشرين ألف جنيه ويستخسر في السواق بتاعه ميتين جنيه.. اتعلمت منه حاجة عمري ما هاأنساها.. المظاهر مش كل حاجة يا مختار.. مش بيقولوا الدين المعاملة؟.. الحمدلله إني اطلقت منه قبل الحكومة ما تقلب عليه.. كان ممكن يورطني معاه.. هو دلوقت عايش بره.. وسمعت إنه لسه بيتجوز ويطلق.. يخيبه راجل.. دا عنده أكتر من خمسة وتمانين سنة..

المرحوم صفوت شريف ليه وضع تاني في اللي اتجوزتهم.. شاب زي القمر اتخطف قبل الأوان.. أستغفر الله العظيم.. الأعمار بايد الله.. كل واحد بيمشي لما يحل أجله.. أنا حبيت شريف كأنه ابني.. مش ابني بالظبط يعني.. لكن ليه غلاوة غير اجوازي التانين.. ما كانش كمل تلاتين سنة لما اتجوزته

وأنا عديت الخمسين.. عشنا أيام حلوة.. كنت بأشرب معاه.. أرقصله ويغنيلي.. كان دايمًا يقول إنه بيحبني قوي.. ويقعد يحلم بأفلام نعملها سوا.. وشركه إنتاج.. بس أنا بصراحة ما كنش ليا غرض.. لما رجله اتجرت في المخدرات وعيته ونصحته وخوفته.. لكن مشي في السكة اللي آخرها الهلاك.. المصيبة الكبيرة إنه حود ع الهيروين.. وفي شمة جامدة راح..

احنا كنا متجوزين عرفي.. ولما بلغني الخبر كنت ها أموت من الحزن عليه.. افتكرت أخويا أنور.. وأبويا وأمي.. وعيطت كتير.. بس لما فقت قلبتها في دماغي وقلت نصيبه كده.. لو ظهرت في الصورة هاتبوظ الدنيا.. كان فيه إشاعات طلعت إننا متجوزين.. بس ما فيش إثبات.. العرفي إيه يعني غير ورقة؟.. الله يرحمه..

بالمناسبة يا مختار.. انت داخل ع الستين ولسه ما اتجوزتش.. نفسي أعرف ليه؟.. ماشي.. ما أنا عارفة يا أستاذ.. الجواز قسمة ونصيب وكل شيء بأوانه.. المهم.. ما علينا.. احنا كده خلصنا من اللي اتجوزتهم ولسه معلمين فيا.. فاضل واحد مهم قوي في حياتي.. ولازم أتكلم عنه وأديله حقه.. بس والنبي تتوصى بيه يا مختار وانت بتكتب.. عشان أنا بأعزه وأحترمه قوي.. الأستاذ عبدالرحيم محسن المحامي.. بني آدم زي الملايكة.. مالوش مثال.. قول عنه زي ما تقول.. أخلاق وأدب وكرامة وأصل وطيبة قلب وحنية.. بتاع ربنا بجد مش زي الحاج صلاح اللي بوشين.. ربنا يديله الصحة ويطول في عمره.. هو النهارده فوق التمانين بكام سنة.. لكن لسه بيروح المكتب..

صحيح ربنا غانيه عن الشغل وعنده اللي يكفيه وزيادة.. لكن دايمًا يقول إنه لو قعد في البيت هايحل عليه المرض ويموت.. الشر بره وبعيد..

على فكرة يا مختار.. تعرف إنه عمره ما قالي يا ليلى حاف كده.. لا.. دايمًا يا ست ليلى.. يا مدام ليلى.. يا ليلى هانم.. لسانه زي الشهد.. أنا لما عرفته كنت في عزي.. الكلام ده سنة تمانين.. لا.. واحد وتمانين.. بعد ما قتلوا السادات بشهر كده.. كنت عامله عقد مع فندق.. وهو المستشار بتاعهم.. من يومها وما سبتوش ولا أقدر أستغنى عنه.. كل سري عنده.. اللي ليا واللي عليا.. ومن كام سنة عملي وصية.. ابنه الكبير محسن ربنا يخليه هو اللي شايل المكتب ومشغله.. مكتبهم قريب مننا هنا في شارع جامعة الدول.. والنبي يا مختار الراجل زي أولياء الله الصالحين.. كامل مكمل.. الدنيا لسه بخير.. عمره ما بصلي بصة كده ولا كده.. ربنا يديله الصحة وطولة العمر ويباركله.. قادر يا كريم..

احنا اتكلمنا عن كام واحد كده يا سيدي؟.. أبويا وأمي وأخويا.. رياض والشيخ عبدالله والحاج صلاح وشريف.. يبقى تمانية.. لا سبعة.. الأستاذ عبدالرحيم هو التامن.. هما دول المهمين قوي في حياتي يا مختار..

فيه واحد تاني لازم أقولك عليه وتكتب عنه كلمتين حلوين من كلامك اللي زي العسل.. انت يا مختار.. صبرك بالله بس.. شوف أنا عرفتك من شهرين

تلاتة.. لكن حاسة إنك معرفة قديمة قوي.. أصلك طيب وابن حلال ومؤدب..

وشك بيحمر كده ليه.. اسمعني بس.. ما هو المفروض إنك ساعدتني في الكتابة يعني وكده.. يبقى لازم تكتب كلمتين عن نفسك.. أنا اللي اسمي على الكتاب يا مختار.. يووه.. أنا خلقي ضيق.. اسمع كلامي بس.. أوعى تفتكر إني ها أسيبك بعد ما نخلص من المذكرات دي.. أبدًا والله.. مشيها صحبية يا سيدي.. اوعى تفتكر إني ناوية أتجوزك.. اضحك يا سيدي.. هو انت تطول؟.. بس كل شيء بأوانه.. تعالى نكمل شرب واحنا بنتفرج ع التليفزيون.. تعالى..

الفصل الثامن: هؤلاء

أقترب الآن الوصول إلى المحطة الأخيرة في رحلة مذكراتي، التي أقدم من خلالها تجربتي في الحياة، وأجد التوقف ضروريًا عند الأكثر تأثيرًا في مسيرتي. خطورة الأثر الذي يتركه معارفك من البشر، لا يقتصر على الجانب الإيجابي وحده، فقد يكون المردود السلبي لبعض معارفنا أكثر أهمية، لكنني أحمد الله لأن الغالبية العظمة ممن تواصلت معهم أصحاب بصمات إيجابية، أو تجمع بين الكثير من الإيجابي والقليل المحدود من السلبي.

لقد فكرت وتأملت طويلاً، وتوصلت إلى أن الأبرز في حياتي هم أفراد أسرتي الأولى الصغيرة: أبي وأمي وأخي، واضيف إليهم اثنين من أزواجي: رياض حمودة وجمال أنور، ومن الأصدقاء أتوقف عند المحامي الكبير الأستاذ عبدالرحيم محسن والكاتب الصحفي القدير مختار حلمي.

من المنطقي أن تكون البداية مع أبي، المرحوم الدكتور رمزي حشمت الأناضولي. الطب عنده رسالة سامية مقدسة، والإدارة الرشيدة الواعية سر النجاح والتفوق. لم يفكر يومًا في افتتاح عيادة خاصة تدر عليه دخلاً إضافيًا وفيرًا، وآثر أن يتفرغ لعمله الحكومي في وزارة الصحة حتى أُحيل إلى التقاعد سنة ١٩٧٠، وهو يشغل منصب وكير الوزارة لأكثر من خمس سنوات. النهار كله للعمل في الوزارة، والنصف الثاني من اليوم مخصص للقراءة والاستمتاع

بثمار الثقافة الرفيعة. الاستثناء الوحيد يوم الجمعة، حيث النزهة في النادي وأداء الواجبات الاجتماعية ورعاية الحديقة.

على الرغم من أصوله التركية القريبة، كان المرحوم أبي وطنيًا مصريًا قحًا. أفاد من بعثته الدراسية الأوربية، التي لم تكتمل لاشتعال الحرب العالمية الثانية، علمًا بالحياة وولعًا بالثقافة والفن، وقد انصرف عن الاشتغال بالسياسة مضطرًا بعد يوليو ١٩٥٢. لم أعرف حقيقة رؤاه وأفكاره وتوجهاته الوفدية إلا بعد رحيل الرئيس جمال عبدالناصر، فقد كان حريصًا على الكتمان حتى في بيته، تخوفًا من القبضة الأمنية الصارمة. لم يمتد به العمر ليشارك في النشاط السياسي خلال فترة حكم السادات، ذلك أنه لم يحتمل صدمة رحيل ابنه الشهيد والزوجة التي أحبها وأخلص لها. أستطيع القول إنه انتقل إلى رحاب الله متأثرًا بالوجع والحزن، ولن أنسى ما حييت مشهد تأثره الباكي وهو يستمع قبل أيام من وفاته إلى سيدة الغناء العربي، وهي تشدو بكلمات الشاعر الشعبي العظيم بيرم التونسي: حطيت على القلب ايدي.. وأنا بأودع وحيدي.. وأقول يا عين اسعفيني.

تعلمت الكثير من المرحوم أبي: الولع بالثقافة، الحرص على الدقة والتنظيم والجدية في العمل، التسلح بالإرادة وشجاعة المواجهة. لم أحترف العمل الفني في حياته احترامًا لرغبته، لكنني تمسكت بكل القيم والمبادئ التي يؤمن بها في عملي، ولو أنه كان حيًا لأبدى إعجابه بكل ما قدمته من أعمال. كان مفكرًا مستنيرًا، ومتدينًا متسامحًا لا يعرف التعصب وضيق الأفق. إلى اليوم الأخير في

عمري سأبقى مخلصة لذكراه العطرة، مدينة له بأجمل ما يميزني من سمات وصفات، ولن أتوقف ما حييت عن الدعاء له بعد كل صلاة.

كم أفخر وأتيه بأن أمي هي السيدة نازلي هانم البارودي، سليلة العائلة العريقة ذات التاريخ الحافل، والتي تتسم في الوقت نفسه بأخلاق بنت البلد الأصيلة. كانت في حياتي أقرب إلى الصديقة التي أبوح لها، عبر مراحل العمر المختلفة، بأسراري وهمومي، ومنها تعلمت الكثير الذي أعيش به حتى الآن: أناقة الملبس والروح، متعة تذوق الموسيقى والفن التشكيلي، أهمية البساطة وضرورة الابتعاد عن التكلف والادعاء، التعاطف مع الفقراء واحترام المشاعر الإنسانية لكل من أتعامل معهم في حياتي اليومية.

تخرجت أمي في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكانت تتقن الإنجليزية والفرنسية إتقانها للعربية، لكنها لم تفكر يومًا في وظيفة حكومية تقليدية. عندما سألتها ذات يوم عن السر في إيثار دور ربة البيت، الذي لا يتوافق مع تعليمها الراقي وثقافتها الرفيعة، قالت إنها ليست في احتياج مادي لعائد الوظيفة، ويومها مزدحم بالكثير الذي يشغلها ويشبعها، والأجدى أن تخصص فائض الوقت للعمل العام والجمعيات الخيرية. لا أظن أحدًا من سكان حي المعادي في الستينيات ينسى عطاء نازلي هانم، فهي الأم الحنون لكل يتيم وفقير، وهي أيضًا في طليعة المنتبهات إلى أهمية العمل بجدية للحفاظ على البيئة.

لا أبالغ عندما أقول إنها صديقتي وليست أمي فحسب، وعند الاقتراب من بداية قصة الحب الأول من ابن الجيران، المرحوم شريف بهجت شريف، نبهتني في مزيج من الحسم والرقة إلى أن الزواج مشروع ينبغي أن يؤجل لصغر سني وقلة خبرتي، لكنها لم تعترض على فكرة الحب أو تشكك في مشروعيته. كانت رحمها الله صديقة لعدد من الفنانات وسيدات الطبقة الراقية، ولم تحل صداقاتها هذه دون الرفض بلا تردد لفكرة أن أعمل في الساحة الفنية، لأنها لا تخلو من عناصر سيئة قد يطولني بعض دخانها المزعج.

ماتت أمي بعد أسبوع واحد من استشهاد أخي المرحوم أنور، فقد أصابتها نوبة قلبية لم تبرأ منها، وبرحيلها المبكر فقدت الأم والصديقة والمثل الأعلى والقدوة، والله أدعو أن يتغمدها بواسع رحمته وعظيم مغفرته.

ما أصعب وأمر الحديث عن أخي الغالي الشهيد البطل أنور رمزي، توأم الروح وصديق الطفولة والمراهقة والشباب المبكر. يكبرني بعامين، لكنه لفرط حنانه ورقته يبدو كأنه الأب العطوف. يمنحني لعبه، ويترك لي الأرجوحة في الحديقة بلا مزاحمة، ويدخر من مصروفه ليفاجئني بهدية ثمينة في عيد ميلادي. كان متفوقًا عبر سنوات الدراسة جميعًا، وعند حصوله على الثانوية العامة بمجموع كبير، يؤهله للالتحاق بالطب أو الهندسة، أصر على اختيار الكلية الحربية. كان وطنيًا مثل أبيه وجده، مسكونًا بالمرارة جراء هزيمة يونيه. صمد ببطولة أمام معارضة أمي لقراره، وكان له ما أراد. تخرج وشارك في ملحمة

العبور العظيمة، وبلغنا خبر استشهاده في التاسع عشر من أكتوبر ١٩٧٣، قبل أيام قلائل من إعلان الهدنة ونهاية الحرب.

خبر كالصاعقة، أطاح بأمي بعد أسبوع واحد، وزلزل أبي فرحل بعدهما بشهور، أما أنا فلا أعرف حتى الآن كيف استوعبت الكارثة المدمرة ولم أمت بتوابعها. أقول إن الله سبحانه وتعالى قد ألهمني القوة والصبر لأعتني بأمي وأواسي أبي، وأقول أيضًا إنني ربما عشت بفعل نعمة الإنكار، متوهمة أن الأمر ليس إلا كابوسًا لابد أن ينتهي، لكنه لم يكن كذلك. الشهادة في سبيل الله والوطن حلم كل مسلم مؤمن، والشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، لكن الحزن قدر الإنسان الذي لا مهرب منه.

عندما استوعبت الصدمة واندمجت مجددًا في إيقاع الحياة التي لا تتوقف لموت أحد، نذرت لله أن أطلق اسم أنور على ابني الأول، فإن كانت انثى أسميها نوارة، لكن إرادة الله هي الغالبة ولا راد لها، وقد شاءت حكمته ومشيئته ألا أكون أمًا لولد أو بنت.

زوجي الأول، المرحوم رياض حمودة، صاحب أثر كبير لا يمكن إهماله أو نسيانه في رحلتي مع الحياة. لا شك أنني أدين له بالكثير في مسيرتي الفنية، دون نظر إلى العلاقة الشخصية وما يشوبها من عكارات ومشاحنات واختلافات. كان المرحوم صاحب شركة إنتاج فني، ويؤمن بموهبتي ويقول إنني راقصة وممثلة من طراز فريد، مؤهلة لاعتلاء عرش تحية كاريوكا، وخلافة

نعيمة عاكف. تعود معرفتي به إلى سنوات طويلة سابقة للعمل والزواج، فقد كان من أصدقاء أبي المقربين. لم نوفق في زواجنا لأسباب شتى، في مقدمتها فارق العمر الكبير الذي يفصلنا، لكن الطلاق لم يفسد كل ما بيننا. احتفظنا بالصداقة المتحضرة، وحرصت دائمًا على الاستماع إلى نصائحه وتوجيهاته القيمة. يعلم الله كم حزنت عليه عند موته، فهو في حياتي بمثابة الأب البديل والصديق المقرب والمستشار الناصح الأمين، فضلاً عن أنه الزوج الأول الذي أحمل له الكثير من مشاعر الاحترام والمودة. تعثر الزواج وفشله مسئولية مشتركة موزعة بيننا، وبعد فترة قصيرة من الطلاق نسيت كل شيء، ولم يبق إلا الطيب من الذكريات.

للمخرج الكبير الراحل جمال أنور مكانة خاصة في قلبي، ليس لأنه أحد أزواجي فحسب، بل أيضًا لأنني أقدر قامته الفنية وقيمته الرفيعة التي تجلت بوضوح في عدد من الأفلام التي جمعتنا. كنا نؤمل نجاحًا أكثر مما أراده الله وقدره لنا، لكننا اجتهدنا قدر الطاقة، والنجاح رهين بعوامل متشابكة معقدة لا تقتصر على الجودة وحدها.

امتدت حياتنا الزوجية لسنوات غير قليلة، واتسمت علاقتنا بالاحترام والتقدير المتبادل. أقول بكل الصدق والموضوعية والحياد إنه أحد أعظم المخرجين في تاريخ السينما المصرية، وكان يقول عني دائمًا إنني موهبة خارقة لم تنل بعض ما تستحق.

لقد عاهدت نفسي ألا أقول غير الصدق في مذكراتي هذه، التي أكتبها للتاريخ والأجيال القادمة، وقد سُئلت كثيرًا بعد الطلاق عن أسبابه وملابساته، وأؤكد الأن، والمخرج الكبير الرائد في ذمة الله، أن الجانب الأكبر من المسئولية في فشل العلاقة الزوجية يعود إليّ. كنت في الشهور الأخيرة السابقة للطلاق أعاني من التوتر والانفلات العصبي، ولم أبح له بالسر الذي أخفيه عنه وعن الجميع. كنت أحلم بالإنجاب منه، وبعد إدراكي أن الحمل صعب أقرب إلى المستحيل، أصابتني حالة نفسية، عابرة بحمد الله، انعكست سلبًا على سلوكي اليومي. ولأنه رقيق وديع رومانسي، لم يطق معي صبرًا، وانتهى الأمر بالطلاق.

الذين يعرفون عن قرب الفقيه القانوني الكبير عبدالرحيم محسن، هم وحدهم من يستوعبون ما يمكن أن أقوله عن المحامي القدير الفذ الذي يلعب في حياتي أدوار الأب والأخ الأكبر والصديق الأمين المخلص. إنه رجل محترم بكل ما تعنيه الكلمة، تقي نقي يخاف الله ويراعي ضميره في كل صغيرة وكبيرة من أمور الحياة. مهارته القانونية في غنى عن شهادتي، أما الجوانب الإنسانية في حياته فإنها تحتاج إلى مجلدات يتولى أمرها العشرات من أصدقائه وتلاميذه ومحبيه. مذ عرفته، في مطلع الثمانينيات، إلى اللحظة التي أعيشها الآن، لم يخذلني الرجل يومًا أو يقصر في تقديم النصح والمشورة. فضلاً عن أستاذيته في المحاماة، فإنه مثقف موسوعي وحكيم صوفي ونموذج فذ للإنسان المسلم كما ينبغي أن يكون.

تجمعي بأسرته المحترمة صداقة قديمة ممتدة، وأحمل لزوجه الفاضلة كل مشاعر الحب والتقدير والاحترام، أما الأبناء الذين يحق له أن يفخر بهم ويباهي، فهم إخوتي الأصغر سنًا، أرى فيهم أطياف الشهيد أنور: المحامي خليفة أبيه محسن عبدالرحيم، والطبيب النابغة الجراح مؤمن عبدالرحيم، والمهندسة السيدة محاسن عبدالرحيم.

لا يحق لي أن أنهي هذا الفصل قبل أن أسجل كلمات لابد أنها ستفاجئ صديقي العزيز الصحفي القدير الأستاذ مختار حلمي، وقد يكون صحيحًا أنني قد عرفته منذ فترة قصيرة، بعد أن تطوع مشكورًا بصياغة فصول الكاتب والإشراف على مراجعته النهائية. سيطالع الكتاب بعد طباعته فيجد أنني قد سمحت لنفسي بتدخل يسير لم يحظ بمراجعته، وإضافة اسمه المحترم إلى قائمة من أعتز بمعرفتهم وأقر بتأثيرهم غير المنكور في حياتي. الأمر هنا ليس كميًا يُقاس بالفترة التي عرفته فيها، لكنه "كيفي" يتعلق بشخصيته الجذابة وثقافته الراقية وأدبه الجم وبراعته المهنية. أذكر له بكل الامتنان أنه تحمس لفكرة المذكرات بصدق وجدية، وأنفق الكثير من الوقت والجهد في طرح الأسئلة والإنصات والتسجيل والصياغة. كل ذلك العطاء بلا مقابل مادي، وعندما لمحت إلى حقه المشروع في ألا يكون العمل مجانيًا، أجابني بلا تردد أو تفكير: أجرى أن أضيف صفحات صادقة إلى تاريخ الفن المصري.

.....

حلوين قوي الكلمتين اللي انت كاتبهم عن نفسك دول يا مختار.. كده تمام.. انت بصراحة تساهل كل خير.. الغريبة يا أخي إنك عارف أسماء ولاد الأستاذ عبدالرحيم المحامي.. وعارف شغلهم كمان.. بسم الله ما شاء الله.. صحفي شاطر بصحيح.. المهم يا سيدي.. القطر بيهدي كده وداخلين آخر محطة.. حمد لله على السلامة..

وكمان رمضان قرب أهو.. روايحه هلت.. كل سنة وانت طيب.. على فكرة أنا أول واحدة عملت موائد رحمن.. تلات موايد وحياتك.. هنا في المهندسين والدقي والعجوزة.. في نيتي الفقير والجعان.. ربنا يتقبل ويديني على قد نيتي.. الحكاية زاطت بعد كده ولمت.. بقت سببوبة شهرة ودعاية.. أنا عمري ما حطيت اسمي على يافطة.. أصل كده يبقى اسمه من وأذى.. لكن تقول ايه في الباقيين اللي ما بيراعوش ربنا.. عينهم على الدنيا مش الآخرة.. وكمان الشيوخ إياهم اللي سابوا كل حاجة غلط في الدنيا ووقفوا عند الرقاصة اللي ما ينفعش الصايم ياكل عندها.. ليه يا مولانا؟.. فلوسهم حرام.. يا سلام.. يعني اللي بياكلوا مال النبي فلوسهم حلال..

نرجع مرجوعنا يا سيدي للموضوع بتاعنا.. اعتزلت وبطلت رقص ليه؟.. شوف يا مختار يا حبيبي.. خدها مني كلمة زي الجنيه الدهب.. بعد الخمسين مافيش واحدة ترقص وتملا العين.. كل حاجة ليها عمر يا أستاذ.. ماينفعش حد يغالط الزمن ويعانده.. يبقى افترا وقلة عقل.. من قيمة عشر سنين كده.. طلعت أعمل عمرة.. كنت زهقانة وتعبانة ومتضايقة ونفسيتي مش هيا..

لما رحت العمرة.. زي ما باقولك كده.. انبسطت والدنيا نورت وحسيت إني اتغسلت.. الله على الجمال اللي تشوفه في حضرة النبي.. راحة بال إيه.. وروقان بال إيه.. المهم يا سيدي.. بعد ما رجعت من العمرة قعدت شهرين تلاتة من غير رقص.. لا فندق ولا كازينو ولا حتى فرح.. كأنها أجازة يعني.. والا ماليش نفس؟.. يومها قالوا إني اتحجبت واعتزلت.. والله كدب.. الغرض ما كانش كده والله.. شوية بشوية رجعت أرقص تاني.. وبعد ما كنت قربت أبطل خمرة رجعت أشرب تاني.. الأكادة إن الشوية اللي بطلت فيهم خلوني أشرب بالزيادة.. وكمان حسيت إن وزني بدأ يزيد.. خطوتي تقلت كده.. والدوخة زادت.. الدكتور الله يستره قال إن الضغط عالي.. اللي زعلني بصحيح إن بصة الناس ليا اتغيرت.. مش نفس الحماس الأولاني والتصقيف والكلام اياه.. حتى اللي بيتصورا معايا قلوا قوي.. في ليلة كده رجعت البيت قرب الفجر.. دايخة زيادة عن كل يوم.. ساعتها طلعت في دماغي إني أبطل..

قلت لنفسي يا بت يا ليلى انت عندك ملايين.. وبدل العربية اتنين.. وفيلا في المهندسين.. وشاليه يروح فيه الحزين يفرح.. في العجمي قبل ما تلم.. لو العمر طال بيك يا ليلى عشرين تلاتين أربعين سنة كمان.. عندك اللي يكفيك ويفيض.. خير ربنا كتير والحمد لله.. الأشيا رضا ومعدن.. تاني يوم عديت على الأستاذ عبدالرحيم وحكيتله.. وافقني وقال لي تفكيرك ده عين العقل.. عنها يا سيدي.. توكلت على الله وبطلت.. جبرت كده خلاص.. قعدت سنة كاملة مع نفسي.. أسافر وقت ما أنا عايزة.. أنام وأصحى بحرية.. أشوف التليفزيون

وأسمع أغاني.. لما وزني زاد من كتر الأكل وقلة الحركة.. لحقت نفسي وعملت رجيم.. بيني وبينك يا مختار منظر الست تحية في سنينها الأخيرة ما كانش بيفارق خيالي.. ربما ما يكتبش عليا اللي كتبه عليها.. قادر يا كريم.. المهم.. ظبطت حياتي تمام.. وحجيت رجعت من الحج لبست الحجاب شهر وخلعته.. كمان الخمرة والسجاير في دمي.. ما عرفتش أبطلهم.. الله غفور رحيم.. الرجالة في الحلال بس.. ما هو العرفي حلال برضه.. كل سنة أعمل عمرة.. وحجيت لأبويا وأمي وأخويا.. يعني تقدر تقول سددت ديوني كلها..

سيبك من الرقاصات والممثلات اللي عاملين فيها الست رابعة العدوية.. أنا أعرف واحدة منهم عاملة شيخة وبتفتي.. عجايب يا زمن.. دي بالذات مفروض تتلم خالص.. أنا أعرف عنها بلاوي ما تتقلش ولا تتحكي.. ربنا أمر بالستر.. لو تابت صحيح يبقى من سكات.. لكن تفتي في الدين وهي مش حافظة الفاتحة؟.. بطلوا ده واسمعوا ده..

تصدق بالله يا مختار.. أيوه كده يا أخي.. لازم تقول لا إله إلا الله.. أنا مافيش حد مالي دماغي بعد الست شادية.. ست محترمة صحيح.. ما حدش بيسمعلها صوت.. عشان هي بتاعة ربنا بجد مش تجارة وشغل بلوتيكا.. شوف البنت المسلوعة التانية اللي اتحجبت وعملت شيخة.. وخلعت الحجاب.. ورجعت اتحجبت تاني.. وبعدين خلعته.. ايه شغل النصب وحلق حوش ده؟..

أنا شايفاها من كام يوم في التليفزيون لابسة عريان وعاملة فيها غندورة وهي عدت الخمسين من زمان.. اخص عليها وعلى اللي زيها.. والله العظيم تلاتة.. ورحمة أبويا وأمي وأخويا.. وغلاوتك عندي يا مختار.. أنا بيني وبين ربنا عمار كبير قوي.. ندمانة على حاجات كتير وحشة عملتها.. بس ربك غفور رحيم.. وعارفة إنه هايغفرلي برحمته كل المصايب.. لكن صدقني العلة مش في الرقص ولا التمثيل.. بأدعي ربنا ليل نهار يسامحني.. لكن مش كل رقاصة أو ممثلة لازم تكون وحشة ومشيها بطال.. فيه وفيه.. زي كل كار يا أستاذ فيه وفيه..

أنا أعرف ستات بيوت وموظفات كانوا بيشتغلوا في الدعارة.. وفيه كام دكتورة ممكن أقولك أسامهم فاتحين عياداتهم للإجهاض وبس.. والجرايد بتنشر يوماتي عن مهندسة بتاخد رشوة وست بيت بتتفق مع عشيقها عشان تقتل جوزها.. وأمهات بيقتلوا ولادهم.. وواحدة صيدلية من كان يوم مسكوها بتبيع اقراص مهببة للشباب.. كل شغلانة فيها وفيها..

ربك رب قلوب.. وإذا كان فيه رقاصة ولا اتنين ولا عشرين وحشين.. ما ينفعش تقول كلهم ماشيين وحش.. الرك ع النية يا مختار.. والدنيا وحياتك بسيطة ومش مستاهلة وجع الدماغ.. أنا اشتغلت في الكار أربعين سنة.. وعملت ملايين.. عمري ما فكرت أدلع نفسي وأقول إني نجمة الجماهير ومعبودة الملايين وفنانة مصر الأولى والحاجات الأونطة اللي زي كده..

الغريبة يا مختار إن مصر أكتر بلد في العالم تعمل مهرجانات وتكريمات وتدي جوايز بالهبل.. لكل من هب ودب.. عمر ما حد دعاني ولا عطاني حتى ميدالية.. يا سيدي.. ربنا يجملها ويكملها بالستر.. كل اللي بأحلم بيه إني أعيش اليومين اللي فاضلين في راحة بال.. وأهو برضه الكتاب لما يطلع هايفكر الناس بيا.. مش كده يا مختار؟.. مش هما برضة نسيوني؟.. وشك احمر ليه؟.. كل حاجة بتتنسي.. قلبك أبيض يا حبيبي.. بلدنا نسابة قوي.. المهم فكرني قبل ما تمشي تاخد باقي المقاولة بتاعتك.. الحق حق وكتر خيرك.. انت تعبت معايا قوي.. جميلك فوق دماغي من فوق.. بس لازم أشوفك.. كل يوم لو تقدر يا مختار.. ما أنت عارف إني ست وحدانية.. وبأستريح قوي لما أشوفك.. والله انت غالي عليا قوي..

الفصل التاسع: نهاية المطاف

الفنانة العظيمة شادية، التي سبقتني إلى الاعتزال بعدة سنوات، هي قدوتي ومثلي الأعلى، ليس في الغناء والتمثيل بطبيعة الحال، فهذا شرف لا أدعيه ولا أطمح إليه، لكنني أعني سلوكها الراقي المتحضر بعد إيثار الابتعاد واعتزال الفن. اختارت الصمت، ولم تتاجر بقرارها أو تبتغي من ورائه مغنمًا دنيويًا. تفرغت للعبادة، وابتعدت تمامًا عن الأضواء، وقاومت ببسالة منقطعة النظير كل محاولات وضغوط وسائل الإعلام للتطفل على الإيقاع الجديد لحياتها الهادئة، وفضلاً عن ذلك فإنها لم تتنكر لتاريخها المجيد الحافل، ولم تفكر في الإساءة لزميلاتها وزملائها، وهذا ما أسعى جاهدة أن أكرره وأحتذيه.

لا أريد أن أتطرق إلى كثير من الفنانين والفنانات، أو أشباه الفنانين والفنانات، الذين تاجروا بالاعتزال المريب واستثمروه، ومن هؤلاء ممثلة تافهة بلا قيمة فنية، أعرفها جيدًا واقتربت منها طويلاً، كانت ذات سلوك مشين في بداية محاولاتها للعمل بالفن، ولم تتورع للأسف الشديد عن المتاجرة بجسدها بحثًا عن دور في فيلم أو مسلسل، ثم إذا بها فجأة تعلن "التوبة" في إطار استعراضي، وسط حملة دعائية صاخبة غير مسبوقة، وتشن هجومًا قاسيًا كاذبًا على الأسرة الفنية، موجهة الاتهامات لأعضائها

بالفجور والتهتك والانحلال، وتتحول بلا مؤهلات إلى شيخة تفتي في أمور الدين والدنيا، وتتحدث بإسهاب الجهلاء عن القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية كأنها الخبيرة المتخصصة، قبل أن تعود لتفاجئ الجميع، جراء انحسار الضوء عنها، بالعودة إلى التمثيل الذي كانت تلعنه، وخلع الحجاب، الذي أكدت أنه فريضة واجبة، والمثير للدهشة بحق هو إسرافها المتطرف المرذول في الظهور بملابس عارية فجة إلى درجة الابتذال.

لن أذكر اسمها، فهذا شرف لا تستحقه، ولا أظنها مجهولة عند الغالبية العظمى من القراء الأعزاء. يعلم الله وحده أنني لا أستهدف التشهير والإساءة، لكنني أدلل من خلالها فحسب على نمط سائد منتشر، يتاجر بالدين، ويسعى من خلال الدعاية الزاعقة لاكتساب الشهرة والنجومية، دون نظر إلى الأساليب والأدوات. الأمر بالنسبة لي مختلف تمامًا، فأنا متوافقة مع نفسي بلا نشاز، في سنوات العمل والاعتزال معًا، وأقول مخلصة صادقة إن القرار صادر عن شعور بضرورة التوقف بعد أن أعطيت وقدمت كل ما أستطيع. أعتز كثيرًا بالعمل الذي احترفته عن حب، وأراود الآن حياة هادئة مثل كل صاحب مهنة يصل إلى المحطة الأخيرة في رحلته مع الحياة.

لا أدعي العصمة ولا أزعم أن حياتي مثالية خالية من الشوائب، ولا أنكر ما في مسيرتي من أخطاء وتجاوزات، فهذا شأن البشر جميعًا، لكنني أؤكد لنفسي وللآخرين أنني اجتهدت فأصبت وأخطأت، وأذكر الجميع بالحديث القدسي عن طبيعة البشر: كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون. السؤال الذي

أود أن أطرحه هنا: هل يقتصر الانفلات الأخلاقي والسلوك غير السوي على العاملين في الساحة الفنية وحدها، دون غيرها من ساحات العمل الإنساني؟.

لستُ، وزملائي من الفنانين المحترمين، في موضع اتهام حتى أشهر أسلحة الدفاع والتبرير، وتجربتي العريضة مع الحياة حافلة بالكثيرة من الخبرات التي تبرهن على أن المهن جميعًا تضم المحسن والمسيء، الطيب الفاضل والشرير الخبيث. ألا يبرهن ما تنشره الصحف والمواقع الإخبارية كل يوم على شيوع الفساد عند ربات البيوت والموظفات التقليديات اللاتي لا علاقة لهن بالفن من قريب أو بعيد؟!. ألا توجد صيدلائيات متهمات ببيع الحبوب المخدرة المهلكة للشباب والمراهقين، ومهندسات مرتشيات يقود سلوكهن المرذول إلى تداعيات مرعبة تزهق فيها الأرواح؟!. إنني أحترم المهن جميعًا، وأقدر المرأة المصرية العاملة المجتهدة، وغاية ما أريد التأكيد عليه هو أن الفساد والانحراف، عند الرجال والنساء على حد سواء، لا يقتصر على مهنة بعينها، ولا يقترن بالفن وحده.

لقد أسعدت الناس بفني لسنوات غير قليلة، وزرعت البهجة في أعماق الملايين من مختلف الأعمار والطبقات، ويشهد كل من يعرفني على التزامي الأخلاقي وخلو سجلي من خطيئة إلحاق الأذى والتآمر. يستطيع من لا يحب الرقص ألا يشاهده، والذين لا تروقهم أفلامي ليسوا مجبرين على مشاهدتها والإعجاب بها. اختلاف الأذواق حتمي، والأمور نسبية. إذا كان الفن في جانب منه سلعة

لها مستهلك يقبل عليها أو يدبر عنها، فإن اختلاف البشر وتباين الأذواق هو الذي يتيح ألا تبور سلعة، أو تروج سلعة أخرى وتحتكر السوق وحدها.

أقول بكل الصدق إنني لا أشعر بشيء من المرارة والضيق لأنني لم أنل بعض ما أستحقه من التكريم والتقدير، ولا أخفي استيائي من زميلات عزيزات لا يهدأ لهن بال حتى يشيع عنهن لقب مصنوع تسّيده الدعاية المدفوعة لا القيمة الفنية. هذه ملكة الرقص الشرقي، وتلك نجمة الجماهير، وثالثة تزعم أنها فنانة مصر الأولى. لم يكن من الصعب أن أنفق عدة آلاف من الجنيهات لأحظى بجائزة في مهرجان أو وسام في احتفالية تنظمها جهة لا يعرفها أحد، لكنني أترفع منذ بدايتي الفنية عن سلوك كهذا، وأرى في التكالب على شراء الألقاب بالمال زيفًا لا أحبه ولا أطيقه.

تتمثل جائزتي الكبرى في حب واحترام جمهوري الكريم العزيز، وسعادتي بلا حدود لأن الملايين الذين استمتعوا بفني يقدرون ما قدمته ويثمنونه غاليًا، ويعرفون أيضًا التزامي بجملة من القيم والمبادئ والأعراف التي لا يكون الفنان فنانًا بمعزل عن الالتزام بها. أشكر كل من أحبني ودعمني، وأحترم الذين لا يجدون في عطائي الفني ما يستحق الاهتمام. لقد فكرت في كتابة مذكراتي هذه لأسجل فيها تجربتي مع الفن والحياة، ملتزمة بالصدق والموضوعية قدر طاقتي. لا أؤمل من ورائها مالاً أو شهرة، لكنني آمل أن يكون فيها ما يفيد ويضيء.

لا يسعني إلا أن أتقدم مجددًا بكل الشكر والعرفان للصحفي القدير الأستاذ مختار حلمي، فهو صاحب الفضل الأول في ظهور كتابي هذا. أنفق الكثير من وقته وجهده، وتفانى في العمل الجاد والمخلص الذي يعبر عن تفرده وسمو أخلاقه وحبه للفن والحقيقة. أفادني بأسئلته العميقة واقتراحاته الإيجابية، أما عن صياغته الملتزمة بكل ما سجله معي من حوارات، فإنها تنهض دليلاً على الكفاءة التي يشهد له الجميع بها.

يمر وطننا العزيز بظروف عصيبة، ويتعرض لمؤامرات أهل الشر في الداخل والخارج، لكنني على يقين من سرعة تجاوز الأزمة والوصول إلى شاطئ الاستقرار والأمان. شعبنا العظيم الصبور المتحضر يستطيع أن يصمد ويقاوم وينتصر، وزعيمنا العظيم الرئيس البطل عبدالفتاح السيسي ربان ماهر حكيم، والله سبحانه معه ومعنا، يؤيدنا ويسدد خطانا وهو نعم المولى ونعم النصير.

القاهرة

٢٥-٥-٢٠١٦.

المؤلفات المنشورة للكاتب والأديب

مصطفى بيومي

الصادرة من مركز إنسان للدراسات والنشر والتوزيع

أولاً: الرواية

١- أمير المؤمنين، ٢٠٢٠

٢- إنسان، ٢٠٢٠

٣- لذة القتل، ٢٠٢٠

٤- أكاذيب صغيرة، ٢٠٢٠

٥- يوم ، ٢٠٢٠

ثانياً : النقد الأدبى

٦- معجم شخصيات بهاء طاهر، ٢٠٢٠

٧- معجم شخصيات علاء الديب ، ٢٠٢٠

٨- كرة القدم في الأدب المصرى، ٢٠٢٠

٩- الحلم والكابوس..عبد الناصر في الرواية المصرية، ٢٠٢٠

١٠- الوهم والكابوس ... السادات فى الرواية المصرية، ٢٠٢٠

١١- ظاهرة الحجاب ... قراءة فى الرواية المصرية، ٢٠٢٠

ثالثاً: السينما

١٢- كرة القدم فى السينما المصرية ، ٢٠٢٠

١٣- الإخوان المسلمون والسينما ، ٢٠٢٠

١٤- عباقرة الظل ، ٢٠٢٠

رابعاً : كتب أخرى

١٥- إعـرف..مصطلحات وكلمات متداولة ،٢٠٢٠

سيكون المؤلف ممتنا، إذا تفضل القارئ الكريم بإبداء ما قد يعن له من ملاحظات

ت: ٠١٠٠٥٧٦٢٥٩٧

جميع الحقوق محفوظة لشركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات
والتدريب والطباعة والنشر.